الفصل الثانى

فى ســـلوك الإنسان

obeikandl.com

obeikandl.com

أ ـ فى دائرة الصراط المستقيم :

صفحة

- التقـــوى ١٩٥
- العمل الصالح ١٩٧
- ســبيل الله ٢٠٠
- العـــدل ٢٠٢
- الاحســان ٢٠٥
- الوسيلة ٢٠٩
- الجهـــاد ٢١١
- ولى الله ٢١٤
- العفـــو ٢١٧
- القنـــاعة ٢٢١
- المعـــروف ٢٢٤
- الصـــبر ٢٢٧
- الابتـــلاء ٢٣٠

obeikandl.com

obeikandl.com

● **التقـــوى :**

● التقوى فى كثير من آيات القرآن الكريم تشير إلى معنى : الترك والتجنب ، لما هو : باطل فى الاعتقاد ، وسيء فى المعاملات والتصرفات وسيء فى السلوك . ولذا : الآيات التى تحكى دعوة الرسل السابقين لأقوامهم تطلب إليهم: التقوى أولا ، بمعنى الترك لما كانوا عليه ، كتمهيد لقبول الرسالة فى جانبها الإيجابى وهى العمل الصالح على أساس من الإيمان بالله وحده . فتقول هذه الآيات :

« إذ قال لهم أخوهم نوح : ألا تتقون ؟ »[١].

« إذ قال لهم أخوهم هود : ألا تتقون ؟ »[٢].

« إذ قال لهم أخوهم صالح : ألا تتقون ؟ »[٣].

« إذ قال لهم أخوهم لوط : ألا تتقون ؟ »[٤].

« إذ قال لهم شعيب : ألا تتقون ؟ »[٥].

وفى حديث القرآن عن مهمة داود عليه السلام يقول : « ياداود : إنا جعلناك خليفة فى الأرض، فاحكم بين الناس بالحق ، ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله، إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا ، يوم الحساب » .. إلى أن يقول : « أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات . . كالمفسدين فى الأرض ، أم نجعل المتقين .. كالفجار؟ »[٦]. فتقضى الآية الأولى من هاتين الآيتين : بأن جزاء الذين ينحرفون عن سبيل الله — وهو سبيل الإيمان بالحق — هو العذاب الشديد يوم الحساب ، أى فى الآخرة.. وتجىء الآية الثانية هنا لتوضيح : أن هذا

---

(١) الشـــعراء : ١٠٦ .
(٢) الشـــعراء : ١٢٤ .
(٣) الشـــعراء : ١٤٢ .
(٤) الشـــعراء : ١٦١ .
(٥) الشـــعراء : ١٧٧ .
(٦) ص : ٢٦ ، ٢٨ .

الجزاء هو العدل بعينه ، ولـكن فى صورة منطقية ومقنعة . وهى صورة : التفرقة فى الجزاء بين المفسد فى الأرض ، والمؤمن الذى يعمل عملا صالحاً .. بين المتقى ، وهو الذى يترك الجرائم الاجتماعية كلها من : زنا ، وسرقة ، وقتل ، كما يترك الباطل فى الاعتقاد من الوثنية والخرافة ، وذلك الآخر الذى يقابله ، وهو : الفاجر الذى ينحرف عن الطريق المستقيم فى السلوك والهداية معاً . فوضع المفسد فى هذه الآية : فى مواجهة المؤمن الذى يعمل صالحا .. هو وضع المتقى : فى مواجهة الفاجر المنحرف . ومن هـذا الوضع ، وهو وضع التقابل ، يفهم : أن التقوى هى ترك الانحراف والباطل . سواء فى الاعتقاد .. أو السلوك .

● ومن أجل ذلك : ترد فى آيات أخرى ، كلمة : التقوى ، بهـذا المعنى والمفهوم — وهو مفهوم الترك والتجنب للباطل — فى اقتران مع عمل إيجابى آخر طبقا للإيمان بالله وحده كشرط لرضاء الله سبحانه . نقرأ مثلا قوله تعالى : « وإن تؤمنوا ، وتتقوا فلكم أجر عظيم »[١] . وقوله : « وإن تحسنوا ، وتتقوا ، فإن الله كان بما تعملون خبيراً »[٢] . وقوله : « وإن تصلحوا ، وتتقوا فإن الله كان غفوراً رحيما »[٣] .. فالإيمان فى آية ، والإحسان فى آية أخرى ، والإصلاح فى آية ثالثة هنا ، فى مقـابل : التقوى فيها جميعها .. يشير إلى العمل الإيجابى ، بينما : التقوى تشير فقط إلى : الترك والتجنب . وقلما يكتفى القرآن فى حسن قبول الإنسان عند الله بالتقوى وحدها . بل يضيف إليها : العمل الصالح ، وهو العمل الإيجابى المثمر ، ممثلا فى الإيمان أو التصديق ، أو ممثلا فى الإحسـان ، أو ممثلا فى الإصلاح ، كما نرى هنا .

والمتقى إذن هو الذى يترك الموبقات ، والفحشاء والمنكر ، والاعتقاد الباطل ـ

---

(١) آل عمران : ١٧٩ . (٢) النسـاء : ١٣٨ .
(٣) النسـاء : ١٣٩ .

ولكى يكون مقبولا عند الله لابد أن يعمل — بجانب ذلك الإتقاء — عملا صالحاً قائماً على الإيمان بالله وحده ، ومتبعاً فيه هدايته .

ولكن لأن ترك الفحشاء والمنكر والاعتقاد الباطل يحتاج من يتركها إلى عزم قوى ، وإرادة نافذة ، وصبر وتحمل .. كان دور المتجنب لها دوراً أساسياً عند الله . ولذا : عظم شأن المتقى ، وشأن التقوى فى التقدير ، وفى العرف معاً .

● **العمل الصالح :**

● فى القرآن الكريم آيات عديدة تتحدث عن : « العمل الصالح » وعن طبيعته أو حقيقته . وفيما يتجلى من هذه الآيات ، يقصد بالعمل الصالح : تطبيق مبادىء الإيمان بالله وبرسالة الرسل ، وهى رسالة الإسلام دين الله : منذ إبراهيم إلى محمد بن عبد الله ، عليهما الصلاة والسلام : « إن الذين آمنوا ، والذين هادوا ، والنصارى ، والصابئين : من آمن بالله واليوم الآخر ، وعمل صالحا ، فلهم أجرهم عند ربهم . ولاخوف عليهم ولا هم يحزنون »[1] .

فهذه الآية وضعت جميع الطوائف على عهد الرسول عليه الصلاة والسلام ، أمام موقف واحد ، إذا ما طلبت أى منها : الاطمئنان على حياتها ، واللحاق بالمقربين الذين لم تفت عليهم فرصة النجاة . وهذه الطوائف هى : طائفة المؤمنين بالقرآن ، وطائفة اليهود ، وطائفة النصارى ، وطائفة الصابئة ، وهى تلك التى كانت تعبد النجوم والكواكب : فيما بين النهرين . وما وراءهما . والموقف الواحد الذى وضعت أمامه هذه الطوائف لتحقيق الهدف المرجو ، هو : الإيمان بالله واليوم الآخر ، والعمل الصالح . وهو ذلك العمل الذى يكون وفقاً لهذا الإيمان ، وقائماً علية .

---

(١) البقرة : ٦٢ .

• وشرط أساسى إذن فى مفهوم العمل الصالح — كما جاء فى القرآن الكريم هنا — أن يكون مؤسساً على الإيمان بالله وحده ، وباليوم الآخر . فإذا كان هناك من يؤدى عمل المؤمنين فى استقامته ، دون أن يكون مؤمناً بالله وباليوم الآخر ، فلا يكون عمله عندئذ عملا صالحا . ولانطواء العمل الصالح على ضرورة الإيمان بالله واليوم الآخر ، قد يكتفى القرآن فى بعض آياته عن ذكر لفظ : الإيمان بالله واليوم الآخر ، بذكر العمل الصالح وحده . كما جاء فى قول الله تعالى : « قل: إنما أنا بشر مثلكم ، يوحى إلى : أنما إلهكم إله واحد ، فمن كان يرجو لقاء ربه : فليعمل عملا صالحا ، ولا يشرك بعبادة ربه أحدا »[١] .. فذكرت الآية صراحة : العمل الصالح ، كأمر يتطلب حتما : الإيمان بالله ، وباليوم الآخر مسبقاً ، ولم تذكر : الإيمان صراحة ومباشرة ، وإن كان يمكن أن يؤخذ الإيمان بالله من قوله : « ولا يشرك بعبادة ربه أحداً » ، .. كما يمكن أن يؤخذ الإيمان باليوم الآخر ، من قوله : « فمن كان يرجو لقاء ربه » ، ولكن بطريق غير مباشر . والاكتفاء بذكر العمل الصالح عن الإيمان : اعتماداً على : أن العمل الصالح يتطلب ضرورة تأسيسه على الإيمان المزدوج : بالله وحده ، وباليوم الآخر .

وإذا حكى القرآن نداء الله إلى الرسل ، بقوله : « يا أيها الرسل : كلوا من الطيبات ، واعملوا صالحا ، إنى بما تعملون عليم »[٢] .. فلم يذكر فى هذا النداء : طلب الإيمان ، مع العمل الصالح : فذلك ليس لأن من مهمة الرسل : الإيمان بالله واليوم الآخر أولا ، وبالضرورة . ولكن مع ذلك — بالضرورة أيضاً — لأن العمل الصالح لا يكون صالحا ومقبولا عند الله إلا إذا ارتبط بالإيمان ، وصار فى حركته طبقا لمبادىء هذا الإيمان .

---

(١) الكهف : ١١٠ (٢) المؤمنون : ٥١ .

وقوله تعالى : « من عمل صالحاً فلنفسه ، ومن أساء فعليها »[1] .. لايقصد هنا بالعمل الصالح : العمل المستقيم فى ذاته ، كما لايقصد بالعمل السيء : العمل السيء فى ذاته . وإنما الإيمان ضرورة فى كيان العمل الصالح ، وإن كان له طابع الاستقامة . وعدم الإيمان ضرورة كذلك فى مسمى العمل السيء .

● إن ضرورة الإيمان بالله واليوم الآخر فى مفهوم العمل الصالح ، لأن من لم يؤمن بالله وباليوم الآخر ، مع العمل الصالح.. يستحيل أن يكون مايأتى به من عمل ، على طول الزمن : لمصلحة الآخرين ، كما هو لمصلحته . إذ طبيعة عدم الإيمان بالله كمركز للقيم العليا — وهى قيم يتقرب إليها المؤمنون وتحقق المصالح العامة للناس جميعا — قد تدفع إلى الإيمان بالذات ، وبالسعي فى سبيلها : إما وحدها ، أو مع قسط ضئيل جداً فى سبيل الآخرين معها لفترة ما . وهنا يتجه عمل المؤمن بذاته وبأنانيته .. إلى أن يكون عملا ذاتياً ، أو أنانياً . ومثل هذا العمل لا يكون صالحاً . بل يكون عملا سيئا .

.. يستحيل على غير المؤمن بالله أن يكون غير مادى . ومن يكون مادياً يقوم عمله على المقابلة ، والمبادلة المادية وحدها ، وينكر كل علاقة بينه وبين الآخرين لاتقوم على هذه المبادلة ، حتى علاقته بالأسرة ، وبالوالدين فيها . ومن ينكر الروابط الإنسانية فى العلاقات ، وينشد الجانب المادى وحده فيها ، ينكر : كل معنى إنسانى ، وكل قيمة من القيم العليا . وادعاء : أن مثل هذا المنكر للروابط الإنسانية : أنه يسلك فى عمله ، طريق المصلحة العامة له وللآخرين معه ؛ إنما هو كادعاء اجتماع النقيضين ، كالماء والنار فى مكان واحد وفى وقت واحد .

الإيمان بالله هو تحول فى واقع الأمر من الأنانية إلى الجماعية الإنسانية .

---

(١) فصلت : ٤٦ .

وبقدر عمق الإيمان بالله واليوم الآخر فى نفس المؤمن ، بقدر تمشى عمله مع الخط المستقيم لصالح الجماعة والأمة .

والعمل الصالح إذن ، هو : تعبير مجسد عن هـذا الإيمان العميق فى نفس المؤمن . ولذا : أصحاب العمل الصالح : لاخوف عليهم ، ولاهم يحزنون . ليس فى آخرتهم فحسب ، وإنما مع ذلك فى دنيـاهم . إذ هم يعيشون لغيرهم قبـل أن يعيشوا لذواتهم .

• سـبيل الله :

إن المتتبع لآيات الله فى كتابه الـكريم ، فيما عبرت به هذه الآيات : عن « سبيل الله » .. يجد : أن الـكفر بالله وعدم الإيمان به ابتعاد عن سبيل الله: « أم تريدون أن تسألوا رسولـكم ، كما سئل موسى من قبل ؟ ومن يتبدل الـكفر بالإيمان فقد ضل سواء السبيل »[1] . فالآية قد جعلت تحدى الماديين الوثنيين بمكة على عهد الرسول — صلى الله علية وسلم — لرسالته ، وكفرهم بوحدانية الله، ضلالا وانحرافا عن سواء السبيل . وسواء السبيل — أو السبيل السوى المستقيم — هو سبيل الله ... ويجد أيضاً : أن اتباع هوى النفس وشهوتها ضلال وبعد أيضاً عن سبيل الله . ففى نداء الله لداود عليه السلام بقوله : « يا داود : إنا جعلناك خليفة فى الأرض ، فاحكم بين الناس بالحق ، ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ، إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب»[2] .. ففى نداء الله هذا : يربط بين اتباع الهوى والضلال عن سبيل الله.. أى يربط بين السلوك الأنانى ، والانحراف عن الخط المستقيم الذى هو سبيل الله .

.. ويجد كذلك : أن الشرك بالله وجعل أنداد له ، ابتعاد عن سبيل الله :

---

(١) البقـرة : ١٠٨ . (٢) ص : ٢٦ .

« ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً ، وأحلوا قومهم دار البوار ... إلى أن يقول: وجعلوا لله أنداداً ليضلوا عن سبيله ، قل تمتعوا فإن مصيركم إلى النار »[1].

.. ويجد أيضاً : أن اتباع الظن والكذب فى السلوك والمواقف ، انحراف عن سبيل الله : « وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلا ، لا مبدل لكلماته ، وهو السميع العليم . وإن تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله ، إن يتبعون إلا الظن ، وإن هم إلا يخرصون »[2] . فإذ ينهى الرسول عليه الصلاة والسلام عن مخالفة كتاب الله إلى رأى اتباع الناس مهما كثر عددهم ، فإنما يربط بين رأيهم ، واتباع الظن أو الكذب فيه . واتباع الظن أو الكذب هو تجنب الصراط السوى ، وهو صراط الله .

وهكذا : الكفر بالله . واتباع الهوى والأنانية .. والشرك بالله .. واتباع الظن أو الكذب : انحراف وابتعاد عن سبيل الله . وسبيل الله إذن هو : سبيل الهداية ، وسبيل الإيمان ، وسبيل التضحية من أجل الإيمان ، وسبيل المصلحة العامة .

سبيل الله هو السبيل الإنسانى المهذب الذى يرتفع فيه الإنسان فى معاملة الآخرين عن : النفاق والانتهازية ، وعن الأنانية والاستغراق فى الشهوات والمتع المادية ، وعن التخمين والتصورات التى قد لا تصيب الواقع . والذى يسلك سبيل الله هو : من يحب غيره كما يحب نفسه .. وهو من يصارح غيره ويكون مرآة له يرى فيها عيوبه .. وهو من يتبع العلم واليقين فى مواقفه من الآخرين .. وهو — قبل ذلك كله — من يؤمن بالله وحده ، دون أن يشرك معه أحداً سواه : فى

---

(١) ابراهيم : ٢٨ — ٣٠ . (٢) الأنعام : ١١٥ — ١١٦ .

الاحترام ، والتقديس ، والعبادة . إذ من يؤمن بالله وحده لا ينافق إنساناً آخر معه ، ولا يخدعه ، ولا يؤثر ذاته بالحب وحدها ، دون الآخرين فى محيط وجوده .

سبيل الله هو : هداية الله التى سجلها فى كتابه الكريم ، وأوحى به إلى رسوله محمد بن عبد الله ، عليه الصلاة والسلام .. هو رسالة الإسلام ، الذى هو السلام بين الناس على هذه الأرض .

العـــدل :

إن هدف رسالة الإسلام — منذ إبراهيم .. إلى محمد ، عليهما الصلاة والسلام — أن يكون المجتمع البشرى فى سلام واطمئنان فى العلاقات التى بين الناس . وذلك بأن يمارس العدل فى قوة بنائه وتماسكه : إن فى القول ، أو فى الحكم ، أو المصالحة ، أو فى الشهادة ، أو فى المعاملة ، بجانب استخدام القوة المادية التى للحديد فى المنعة ضد الاعتداء ، واستخدام منافعه فى صالح التعمير والرخاء . وتقول الآية الكريمة فى توضيح هذا الهدف : « ولقد أرسلنا رسلنا بالبينات :

١ — « وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط (أى بالعدل).

٢ — « وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ، ومنافع للناس ، وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب ، إن الله قوى عزيز »[1] .. فكما أن الله جعل الحديد مصدر القوة المادية ، جعل كذلك كتاب الله مصدر القوة المعنوية ، وهى العدل . وباقتران القوتين معاً فيما عبر عنه القرآن بالإنزال هنا : « وأنزلنا » . لا يتحقق سلام فى

---

(١) الحديد : ٢٥ .

مجتمع بشرى ، ولا اطمئنان فيه إذا وجدت فيه إحدى القوتين دون الأخرى . فإذا وجد « العدل » وحده — دون القوة المادية التى للحديد فى استخدامه واستخلاص منافعه — لا يأمن المجتمع وقوع الاعتداء عليه من خارجه، كما لا يأمن الأفراد فيه وقوع التنازع والتخاصم فيما بينهم ، بسبب التخلف فى الجوانب الاقتصادية ، التى لا يساعد فيها إلا منتجات الحديد ذات الأهمية فى التطور الصناعى. وإذا وجد الحديد وحده — دون « العدل » — كان الطغيان وكان الظلم ، تسنده قوة لا تعرف التوجيه فى ذاتها . وإنما تعرف فحسب أن توجه . ويتوقف الانتفاع بها على أن توجه : من مرشد ، هو الإنسان العادل .

وأيا وجدت إحدى القوتين دون الأخرى ، فإن كتاب الله — الذى أنزل مع الحديد — لا يكون مطبقاً تطبيقاً كاملا ، ويكون المجتمع الذى يأخذ بواحدة من هاتين القوتين دون الأخرى قد آمن ببعض الكتاب وكفر بالبعض الآخر . وعندئذ يبتعد المؤمنون فيه أن يكونوا قريبين من الله القوى ، العزيز . فتعقيب الآية بقول الله : « إن الله لقوى عزيز » : يرشد المؤمنين بالله إلى أن يلتمسوا القوة ، والعزة التى هى فى مباشرة العدل ، والانتفاع بالحديد معاً . فإذا ما التمسوها وأصبحوا أقوياء ، كانوا عابدين حقاً لله الذى هو القوى العزيز . فالله لا يرضى عن عباده الضعفاء . وإنما يرضى فقط عن أولئكم الذين يحاكون صفاته عن طريق عبادتهم إياه فى : سلوكهم ، وفى مواقفهم ، وأفعالهم . ومن صفاته: القوة والعزة .

• والعدل فى ضروبه المختلفة تشير إليه آيات القرآن ، فيما يقوله الله عز وجل :

(ا) فيقول فى شأن العدل فى القول : « وإذا قلتم فاعدلوا ، ولو كان ذا قربى »[1] .

---

(١) الأنعام : ١٢٥ .

(ب) ويقول فى شأن العدل فى الحكم : « وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل »[١] .

(جـ) ويقول فى شأن العدل فى المصالحة : « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله ، فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا ، إن الله يحب المقسطين »[٢] .

(د) ويقول فى شأن العدل فى الشهادة : « وأشهدوا ذوى عدل منكم ، وأقيموا الشهادة لله »[٣] .

(هـ) ويقول فى شأن العدل فى المعاملة المالية : « وأوفوا الكيل والميزان بالقسط »[٤] . ويقول أيضاً : « وأوفوا الكيل إذا كلتم ، وزنوا بالقسطاس المستقيم »[٥] .

وفى الوقت الذى يأمر فيه القرآن بالعدل ـ وعلى الأخص فى هذه الجوانب ـ ينهى أيضاً عن أن يتأثر الإنسان فى مباشرته للعدل :

(ا) بالغضب فيقول : « ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا ، أعدلوا هو أقرب للتقوى » .

(ب) وبالهوى والرغبة فيقول : « فلا تتبعوا الهوى ، أن تعدلوا »[٦] .

(جـ) وبالتحيز بسبب العقيدة فيقول : « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم : أن تبروهم وتقسطوا إليهم »[٧] .

---

(١) النساء : ٥٨ .
(٢) الحجرات : ٩ .
(٣) الطلاق : ٢ .
(٤) الأنعام : ١٥٢ .
(٥) الاسراء : ٣٥ .
(٦) النساء : ١٣٥ .
(٧) الممتحنة : ٨ .

• ولكن لا يستطيع الإنسان أن يباشر العدل بين الناس فى ضروبه المختلفة : فى القول ، والحكم ، والمصالحة ، والشهادة ، والمعاملة ، ولا يستطيع كذلك أن يتخلى عن الغضب ، والهوى ، والتحيز فى مباشرته إياه ، إذا لم يكن هو « عادلا » فى نفسه بين مقتضيات بدنه ، وتوجيه حكمته ، عقله . . إذا لم يكن معتدلا فى سلوكه وتصرفاته . . إذا لم يكن متوازناً بين ذاته من جانب ، والآخرين معه فى المجتمع من جانب آخر .. لا يستطيع ذلك إذا كان « أنانيا » أو « انتهازياً » أو « مادياً » أو « منفعياً ومصلحيا » .

إن مباشرة العدل بين الناس تحتاج إلى إنسان عرف العدل ، وطبقه فى حياته الخاصة أولا . والعدل — كقيمة من القيم العليا — لا يختلف عن « الحكم » و « الدين » إن دخل أى منهما مجال الاحتراف فإنه يكون أسوأ ما تمنى به البشرية . وهنا كان أمر الله لرسوله الكريم : « وأمرت لأعدل بينكم »[1] .

الاحسان :

• يروج بين المسلمين فى معنى « الإحسان » : أنه العطاء للمحتاج لصاحب الحاجة . وانتهى أمر الإحسان فى التطبيق بين المتأخرين منهم .. إلى : أنه منح القليل للعاجز ، أو لصاحب الحاجة . وأصبح أمره فى تقدير المجتمع المعاصر ينطوى على مهانة ومذلة لمن يمنح هذا القليل . ومن أجل ذلك يعمد هذا المجتمع المعاصر إلى التشريع ، فالتنفيذ بالقوة الإلزامية فى سد حاجة المحتاج بإسم : « الضمان الجماعى » أو بأى إسم آخر . ويفاخر هذا المجتمع المعاصر كذلك بأنه يحتفظ للمواطن بكرامته الإنسانية عن طريق هذا التشريع . ولكن إذا قرأنا قول الله تعالى فى سورة الليل : « والليل إذا يغشى . والنهار إذا تجلى . وما خلق الذكر والأنثى . إن سعيكم لشتى : فأما من أعطى واتقى . وصدق بالحسنى . فسنيسره لليسرى . وأما من بخل واستغنى . وكذب بالحسنى . فسنيسره للعسرى »[2] .. إذا قرأنا هذه

---

(١) الشورى : ١٥ . (٢) الليل : ١ — ١٠ .

الآيات نجد أن الإحسان ، أعم من العطاء للمال . نجده هنا : يشمل العطاء والتقوى ، كما تذكر الآية : (فأما من أعطى واتقى) . وقول القرآن بعد ذلك : (وصدق بالحسنى) هو تعقيب على العطاء والتقوى معاً . وهذا النوع من الناس الذى يعطى المال ويتقى — مع تصديقه وإيمانه بالإحسان — أمره ميسر فى حياته وفى آخرته . لا يحقد عليه إنسان معه فى حياته . وعمله مقبول عند الله فى آخرته . لأنه امتثل لما أراده الله منه فى شأن السلوك الإنسانى معاً .

وفى مقابل هذا النوع : الآخر الذى يمسك عن العطاء ، ويستغنى بماله عن تقواه وعمله الصالح ، مع تكذيبه وإنكاره لمبدأ الإحسان ، فإن أمره يصير إلى العسر والشدة فى حياته وآخرته : « وما يغنى عنه ماله إذا تردى » . . أى سقط فى أزمة فى حياته ، أو انتهى أمره إلى الموت فى آخرته . فالحقد يحيط به من كل جانب ، والمذلة من أجل جمع المال تسقط كرامته فى دنياه . ثم هو فى آخرته لا ينال الحسنى من الله ، لأنه خالف ما أمره به فى المال والسلوك .

• وكذلك إذا قرأنا بعض آيات القرآن التى تصف عملا للمؤمنين بالإحسان ، كما فى قوله : « الذين ينفقون فى السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين »[1] . . فإن هذه الآية تعقب بقوله : « والله يحب المحسنين » وتقصد بالمحسنين أولئكم المؤمنين الذين يتصفون بالإنفاق فيما يسر وفيما يدفع الضر والشدة ، وبأنهم يكظمون غيظهم عندما يساء إليهم شخصياً من غيرهم ، وبأنهم يعفون ويتسامحون عن هفوات هؤلاء . فأدخلت الآية : كظم الغيظ ، والعفو عند المقدرة عن الناس ، بجانب الإنفاق فى سبيل المصلحة العامة : فى صفات المحسنين . وهنا شمل الإحسان ما ليس بعطاء من المال . . شمل موقفاً كريماً مهذباً للإنسان المؤمن ، وهو موقف الكاظم لغيظه من إساءة غيره ، وموقف الذى يتسامح للآخرين ، مع قدرته على الجزاء ورد الإساءة بالإساءة .

---

(١) آل عمران : ١٣٤ .

وكذلك الشأن إذا قرأنا ما يوجهه القرآن إلى المؤمنين فى قوله :

١ — « ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار ، وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون .

٢ — « وأقم الصلاة طرفى النهار وزلفا من الليل ، إن الحسنات يذهبن السيئات ، ذلك ذكرى للذاكرين .

٣ — « واصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين »[1] .. نرى هذه الآيات الثلاث تصف: موقف المؤمنين من أعدائهم بما يجب عليهم : من عدم الركون إليهم والثقة فيهم ، ومن مباشرة الصلاة فى أوقات مختلفة من النهار والليل . . ومن الصبر والتحمل على مناوشة الأعداء إلى أن يتمكنوا من دفعهم .. تصف هذا الموقف من المؤمنين : بالإحسان .. تصفه مرة فيما تقول آية : « إن الحسنات يذهبن السيئات » .. وتصفه مرة أخرى الآية : «فإن الله لا يضيع أجر المحسنين » .

ومع ذلك ليس أداء أى عمل من هذه الأعمال عطاء للمال إلى محتاج إليه . وإنما ما يطلب من المؤمنين هنا فى هذه الآيات الثلاث : هو موقف نفسى ـ كعدم الركون ، وعدم الثقة بالأعداء ، والصبر والتحمل لمناوشتهم — أو عبادة يتصل بها العابد بربه ، كإقامة الصلاة فى بعض أوقات النهار والليل .

● وإذا انتقلنا إلى نوع آخر من الآيات التى تدعو إلى الإحسان فى التعبير، كما فى قوله تعالى : « وقل لعبادى يقولوا : التى هى أحسن ، إن الشيطان ينزغ بينهم ، إن الشيطان كان للإنسان عدواً مبينا »[2] .

. . أو إلى الإحسان فى الجدل والنقاش كما فى قوله : « ولا تجادلوا أهل

---

(١) هود : ١١٣ ـ ١١٥ . (٢) الاسراء : ٥٣ .

الكتاب إلا بالتى هى أحسن ، إلا الذين ظلموا منهم ، وقولوا آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم ، و إلهنا و إلهكم واحد ونحن له مسلمون »[١] ،

. . أو إلى الإحسان فى رد التحية على نحو ما تذكر الآية : « وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها »[٢] .. إذا انتقلنا إلى مثل هذه الآيات : نجد الإحسان عبارة عن تهذيب فى القول ، والمنطق ، والوجدان ، وليس عطاء للمال، فى قليله أو كثيره .

• وهكذا لو تتبعنا معنى الإحسان فى آيات أخرى ، كتلك التى تحدد المعاملة فى الأسرة ، مثل الآية التى تطلب من الأولاد أن يحسنوا إلى آبائهم فى قوله تعالى : « وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه ، وبالوالدين إحسانا : إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما ، واخفض لهما جناح الذل من الرحمة، وقل : رب ارحمهما ، كما ربيانى صغيرا»[٣] . أو الأخرى التى تطلب من الزوج : الإحسان إلى الزوجة عند طلاقها فى قول الله تعالى : « الطلاق مرتان ، فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان »[٤] .. لو تتبعنا مثل هذه الآيات لوقفنا على أن معنى : «الإحسان» إلى الوالدين هو ماشرحته بقية الآية التى طلب فيها الإحسان إليهما فى قوله : «إما يبلغن عندك الكبر : أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ، ولا تنهرهما ، وقل لهما قولا كريما . واخفض لهما جناح الذل من الرحمة ، وقل : رب ارحمهما ، كما ربيانى صغيراً » . ومضمون ما طلب هو : رعاية الشعور النفسى ، وتوفير الاحترام لهما ، أكثر من إنفاق المال عليهما .. ولوقفنا أيضاً على أن معنى «الإحسان» إلى الزوجة عند طلاقها ومفارقتها نهائياً هو: معاملتها معاملة إنسانية كريمة فى الإحتفاظ بكرامتها وتوفير معنى الاحترام

---

(١) العنكبوت : ٤٦ .
(٢) النساء : ٨٦ .
(٣) الاسراء : ٢٣ ، ٢٤ .
(٤) البقرة : ٢٢٩ .

لها ، أكثر من تقدير « المتعة » لها ، وهى النفقة القصيرة الأجل بعد طلاقها .

وهكذا « الإحسان » . . المطلوب من المؤمنين فى القرآن الكريم يتعدى عطاء المال إلى : التهذيب فى المعاملة ، وفى النطق ، وفى المخاصمة ، وفى المواقف التى تتخذ قبل الآخرين .. نجده : السلوك الإنسانى فى مستواه الرفيع .

ولذا كان الإحسان درجة فوق العدل ، ومأموراً به لتماسك الجماعة وبقائها على الصفاء النفسى :

إنه الإعطاء حقاً ،

ولكنه إعطاء من الإنسانية ، قبل الإعطاء من الماديات ،

وإنه التزام من المؤمن لنفسه ، وليس إلزاماً من سلطة وراء ذاته .

● **الوسيلة :**

● يفهم بعض المسلمين مما جاء فى قول الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا : اتقوا الله ، وابتغوا إليه الوسيلة ، وجاهدوا فى سبيله لعلكم تفلحون »[1] .. يفهم من تعبير الآية بـ : « الوسيلة » : أن الوسيلة هى : « الوساطة » بين الإنسان والله . . وأنها وساطة مجسّمة فى شخص حى يرزق ، أو ميت : يقصد بالزيارة فى قبره ، فى المناسبات أو فى فترات متقطعة . وكأن المؤمنين يتوسل بعضهم ببعض إلى الله ، وأنه يكفى فى القربى إلى الله : أن يتوسط إنسان لإنسان .

● ومعنى الوسيلة على هذا النحو ، من : الوساطة ، يتعارض مع قول القرآن الكريم فى آية أخرى : « من عمل صالحاً فلنفسه ، ومن أساء فعليها ، وما ربك بظلام للعبيد »[2] . إذ هذه الآية تبرز معنى المسئولية الفردية . أى تبرز : أن عمل الإنسان هو الذى يقربه إلى الله إن كان عملا صالحاً ، وهو نفسه الأمر الذى يبعده عن الله إن كان عملا سيئاً . والقربى إلى الله حينئذ لا تكون إلا بالعمل الصالح

---

(١) المائدة : ٣٥ .
(٢) فصلت : ٤٦ .

المستقيم لمن يباشره ، دون أن تتحقق بوساطة شخص آخر ، مهما كانت درجته فى التقوى والإيمان : «ومن يأته مؤمناً قد عمل الصالحات ، فأولئك لهم الدرجات العلى »[1] .

والإسلام يحارب الشرك والوثنية ، لأنه يقصد من محاربتها إلى رفع : « الوساطة » بين الله والناس ، ويريد أن يسوى بينهم جميعاً فى موقفهم : أمام الله. والناس جميعاً : كلهم متساوون فى الإعتبار البشرى ، هم أيضاً متساوون فى المسئولية الفردية عن أعمالهم . إذ على أساس من هذه المسئولية الفردية يكون جزاء الله لهم . وهو جزاء متنوع بين : رضاء الله وجنته ، وغضبه وجحيمه . وفى تنوع جزاء الله حسب تنوع أعمال الناس . . لا يكون الله ظالماً لأحد ممن يقع عليه جزاؤه ، إن بالرضى ، أو بالغضب عليه . لأن نوع الجزاء مرتبط بنوع العمل :

« وما ربك بظلام للعبيد » .

والوسيلة التى جاءت فى هذه الآية — كما جاءت فى آية أخرى فى الكتاب الكريم — هى العمل الصالح وحده الذى يأتى به المؤمن ، والذى هو مسئول عنه . والآية هنا ، وهى قول الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا : اتقوا الله ، وابتغوا إليه الوسيلة ، وجاهدوا فى سبيله لعلكم تفلحون » .. تطلب إلى المؤمنين ، أولا : أن يتقوا الله ، أى يتجنبوا غضبه . وذلك بترك المحرمات . وبالأخص : ترك الجرائم الإجتماعية منها ، وهى : القتل ، والسرقة ، والزنا ، وثانياً : أن يبتغوا إليه الوسيلة ، بأن يباشروا العمل المستقيم ، وهو العمل الإنسانى الذى يفيد الإنسان والآخرين معه ، ولا يؤذى أحداً منهم ، والذى من شأنه أن يعود على الأمة بالترابط وبالقوة وبالعزة والمنفعة ، وعلى وجه أخص : يباشروا الجهاد فى سبيل الله : بدفع الاعتداء عن الأمة ، وعن قيمها العليا التى آمنت بها .

---

(١) طـه : ٧٥ .

وعلى هذا النحو لمفهوم « الوسيلة » : ما جاء فى الآية الأخرى من قول الله تعالى : « قل : ادعوا الذين زعمتم من دونه ، فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا . أولئك الذين يدعون : يبتغون إلى ربهم الوسيلة — أيهم أقرب — ويرجون رحمته ، ويخافون عذابه ، إن عذاب ربك كان محذوراً »[1] . الآية الثانية فى هاتين الآيتين : تندد بمن يعبدون غير الله من أفراد الإنسان . فبينما يتجه هؤلاء العابدون لغير الله بعبادتهم إلى بعض أفراد الإنسان ، إذا بذلك البعض الآخر الذى يتجه إليه بالعبادة يسعى هو بالعمل الصالح إلى ربه ، ويبتغى إليه الوسيلة ، وهى القربى بهذا العمل الصالح . وهذا معنى قوله : « أولئك الذين يدعون (أى هؤلاء الذين يتجه إليهم بالعبادة) يبتغون إلى ربهم الوسيلة (أى يسلكون إلى الله طريق العمل الصالح) ويرجون رحمته ، ويخافون عذابه » . فأى الفريقين هنا أقرب إلى الله ؟ : أذلك الفريق الذى عبد من غيره ، وهو نفسه يتقرب إلى الله بالعمل الصالح ؟ أم ذلك الفريق الآخر الذى وقف بعبادته عند بعض أفراد الإنسان ، دون الله ؟ : « أيهم أقرب ؟ » .

وهكذا : الوسيلة هى العمل الصالح — وليست الاستناد إلى شخص آخر — فى القربى إلى الله .

● **الجهـــاد :**

إن مفهوم الجهاد — فيما تذكره آيات عديدة من القرآن الكريم — مرتبط بسبيل الله . . مرتبط بنشر مبادىء الدين ، أو بالدفاع عنها . يقول الله تعالى :

« إنما المؤمنون : الذين آمنوا بالله ورسوله ، ثم لم يرتابوا ، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله (أى عملوا جاهدين عن طريق إنفاق أموالهم ، أو بذل طاقاتهم البشرية فى تأييد الدين ونشره) أولئك هم الصادقون (أى فى إيمانهم) »[2] .

---

(١) الاسراء : ٥٦ ، ٥٧ . (٢) الحجرات : ١٥ .

obeikandl.com

لأنها موطن المسلمين ، ولأنها أرض يعلن المؤذن فوقها : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، من قبل ومن بعد .

« وإذا كان الدين هو المستهدف أساساً فى فريضة الجهاد .. فإن الجهاد ليس بلازم أن يكون قتالا ، إلا إذا فرض القتال . . فرضه العدو لرد اعتدائه بالحرب أو ما يشبه الحرب : « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل مااعتدى عليكم »[١].

.. يكون الجهاد بالكلمة والدعوة ،

.. ويكون الجهاد بالقدوة الطيبة ،

.. ويكون الجهاد بإعلان إنكار المنكر ،

.. ويكون الجهاد بالسيف والقتال .

وفيما يقوله سبحانه : « يا أيها الذين آمنوا : هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم . تؤمنون بالله ورسوله ، وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ، ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون »[٢] — فى خطاب موجه إلى جميع المؤمنين — فيما يقوله الله هنا يؤذن بأن الجهاد له مستويات متنوعة : فضلا عن أنه بالمال والنفس .. فإن درجات المال ، مختلفة وطاقات النفس عديدة. وإذا كان المال يختلف بالقلة والكثرة فى أيدى المؤمنين ، فإن طاقات النفس بينهم تتعدد من : اللسان والقدرة على البيان . . إلى القلب وما يملك من المحبة والكراهية . . إلى اليد وما تستطيع من ضرب وقتل .. إلى العقل وحكمته وإبداعه . . كل تلك جوانب متعددة ومختلفة لدى المؤمنين . ونوع الجهاد كفريضة عليهم يتحدد بالنسبة لكل مؤمن ، حسب ما هو بارز فيه من طاقة ومقدرة .

أما بالنسبة للمؤمنين كأمة فنوعية جهادها فى سبيل الله يختلف باختلاف أوضاعها وعلاقاتها بالآخرين . فقد تفرض على الأمة الإسلامية من الآخرين حرب

---

(١) البقرة : ١٩٤ .   (٢) الصف : ١٠ ، ١١ .

إيديولوجية ومذهبية رداً لتشويه مغرض ودعاية مسمومة ضد الإسلام ، وهنا : يكون من اللسان والقدرة على البيان ، وتكون حكمة العقل فى السياسة . وقد تفرض على هذه الأمة حرب اقتصادية ، وهنا : يكون المال فى جمعه من القادرين واستثماره عن طريق من لهم خبرة فى شئون استثماره والانتفاع به فى سبيل مصلحة عامة . وقد تفرض عليها حرب تسفك فيها الدماء ، وهنا يكون إبداع العقل فى القيادة ، ومال القادرين فى العدّة ، وشجاعة الأقوياء فى لقاء العدو فى ميدان القتال . وقد يفرض عليها لون من ألوان استعمار القوى ـ والأمة ضعيفة لا تستطيع المواجهة الصريحة — وهنا تكون كراهية القلوب وبغضاؤها ، وعدم قبول النفوس لأى نوع من أنواع التعاون مع المستعمر .

● ومشروعية الجهاد إذن هى الطريق إلى الحياة : كيف يحتفظ المؤمنون بحياتهم ؟ .. كيف يصونون استقلالهم وكرامتهم ؟ .. ـ واستقلالهم وكرامتهم : فى عدم تبعيتهم لغيرهم فيما يعتقدون ، وفيما يسلكون ـ كيف يكونون آمنين غير مهددين فى أوطانهم ؟ . كيف يكونون أعزاء وسعداء بثرواتهم ؟.. كيف يكون بناؤهم لمستقبل مجتمعهم وهم أحرار ؟

إن الجهاد ضرورة الحياة . وإن ارتباط الجهاد بالإيمان بالله وبسبيل الله ، هو الطريق لبقاء حيويته ولنجاحه أيضاً فى آثاره .

● **ولى الله :**

● هناك أولياء لله .

وهناك أيضاً أولياء للشيطان .

وهناك أولياء للكافرين أو الأعداء كذلك .

إن القرآن فى حديثه عن أولياء الله يذكر قوله تعالى : « ألا إن أولياء الله

لاخوف عليهم ولا هم يحزنون . الذين آمنوا وكانوا يتقون »[1] .. كما يشير فى آية أخرى إليهم بقوله : « وما لهم أن لا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام وما كانوا أولياءه، إن أولياؤه إلا المتقون، ولكن أكثرهم لا يعلمون[2] .. فيحكم على أولياء الله بأنهم «لا خوف عليهم ولا هم يحزنون » . . ويصفهم بأنهم : المتقون . . وفى الوقت نفسه ينفى عن المشركين أنهم أولياء الله ، ويحكم عليهم بأن عذابه لاحق بهم لا محالة بسبب عداوتهم للإيمان وصدهم عن المسجد الحرام .

ولكى نعرف « المتقين » الذين هم أولياء الله ، والذين هم لا خوف عليهم ولا هم يحزنون .. نتابع النقل عن القرآن الكريم فى قوله تعالى :

« ليس البر (أى ليست الهداية ولا اتباع الحق) أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكن البر :

١ — «من آمن بالله ، واليوم الآخر ، والملائكة ، والكتاب ، والنبيين ،

٢ — « وآتى المال على حبه : ذوى القربى ، واليتامى ، والمساكين ، وابن السبيل ، والسائلين ، وفى الرقاب ،

٣ — « وأقام الصلاة ،

٤ — « وآتى الزكاة ،

٥ — « والموفون بعهدهم إذا عاهدوا ،

٦ — « والصابرين فى البأساء ، والضراء ، وحين البأس ،

« أولئك الذين صدقوا ، وأولئك هم المتقون »[3] .. فى هذه الآية يصف

---

(١) يونس : ٦٢، ٦٣ (٢) الأنفال : ٣٤ .
(٣) البقرة : ١٧٧ .

القرآن التقوى بست صفات ، هى : الإيمان ، وإنفاق المال مع الرغبة فى إنفاقه لصالح الأهل وأصحاب الحاجة فى حياتهم اليومية أو فى حياتهم الإنسانية كالمكرهين على أمرهم فى شئونهم وحريتهم ، وإقامة الصلاة ، وإخراج الزكاة ، والوفاء بالعهد إن أعطوه ، والصبر فى الشدائد ووقت الأزمات .

فالتقوى هى إيمان وسلوك . . هى إنسانية تتجلى فى الإيمان بالله ، وفى رعاية الغير والآخرين ، رعاية نفسية ومادية . . هى حد من الأنانية لإفساح مجال المشاركة فى المساندة والمعاونة . . هى طاقة فى النفس تحملها دائماً على التفكير والعمل من أجل الغير ، كما تفكر وتعمل من أجل الذات . والمتقى إذن هو ولى الله،والمنحرف عن طريق التقوى هو ولى الشيطان ، أو ولى الكافرين . والمتقون أو أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون . لأن أساس الخوف هو الحرص على متع الحياة المادية من الضياع . ولأن الحزن نتيجة لما ضاع فعلا من متعها . وولى الله ـ كما وصفته الآية هنا ـ يعطى من نفسه ومن ماله ، وهو راغب ومحب للعطاء ، وهو صابر فى البأساء والضراء ، لأنه يعلم أنه يعيش لهدف ، هو : الايمان بالله ، والبقاء على هذا الإيمان . ومن ثم لا تلعب متع الدنيا فى حياته إلا دور عدم الحرص عليها . فإن جاءت فهى للآخرين معه . وإن ولت فلا أسف على ذهابها . وهنا لا يخاف ضياعها ، ولا يحزن على فواتها . وكذلك لا يخشى عليهم . لأنه يخشى عليهم من ماذا ؟ . هم يعطون الآخرين ، ويعاونوهم على التحرر من : الجوع ، ومن إذلال العبودية فى أية صورة من صور الإذلال . والآخرون من أجل ذلك لا يحقدون عليهم . وبالتالى لا يضمرون الانتقام منهم . فهم لاخوف عليهم . ولا يخشى عليهم أيضاً ، لأنهم أوفياء بعهدهم ، وأمناء على غيرهم فى أعراضهم ، وحرماتهم ، وأماناتهم . ولذا هم مطمئنون . ولا يخشى عليهم من إذلال أعداء الله لهم ، إن وقعوا فى أزمة وفى شدة ، لأنهم أقوياء ، وأصحاب قدرة

على التحمل والاستمرار فيه ، حتى تمر الأزمة . فهم ليسوا قابلين للإذلال بسبب الشدة والضيق .

● وإذا كان ولى الله هو المتقى ، وإذا كانت التقوى صفات تحدد السلوك والاتجاه فى الحياة : على أساس من هدى الله وكتابه . . فالولاية لله مفتوحة لمن يتقى ، ويتبع كتاب الله وهدايته . وأولياء الله بالأمس لا يتميزون على أولياء الله اليوم .. أو فى الغد ، إلا فى مستوى التقوى . فأكرمهم عند الله أتقاهم ، أى أكثرهم تقى : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .

وولى الله إذن ليس هو من يخرج عن هداية الله ، ويسقط تكاليفه ، بدعوى: « التميز » والاتصال بالحقيقة ، وعدم الحاجة إلى هذه التكاليف الظاهرة !! . فرسول الله عليه الصلاة والسلام كان الإمام بين أولياء الله ، ومع ذلك فهو : « القدوة » فى تطبيق هداية الله والعمل بتكاليفه . وولى الله إذن كذلك : ليس «صاحب الضريح والقباب» .. وليس «صاحب الرداء المزركش» .. وليس «المدعى للكرامات » .. ولا « المتحدث عن النفحات » . إن أولياء الله هم عباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً » . إن أولياء الله هم المجاهدون بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله ، وهم الذين يقون المسلمين من شر الأعداء ، ويقون الإسلام من مادية الشرك وإلحاده ، هم : « الذين آمنوا ، وكانوا يتقون » :

● **العفو .. والصفح :**

● العفو ـ كصفة ممدوحة ـ ليس هو التنازل للآخر عن خوف أو جبن ، وإنما هو التنازل عن قدرة على البقاء على عدم الصفح فى مواجهة من يعفى عنه . يقول الله تعالى ـ متحدثاً عن نفسه جل شأنه ـ فى كتابه الكريم : « إن تبدوا خيراً أو تخفوه ، أو تعفوا عن سوء ، فإن الله كان عفواً قديراً »[1] .. فإنه يصف

(١) النساء : ١٤٩ .

نفسه بالعفو ، مقترناً بوصفها بالقدرة فى اللحظة ذاتها : « فإن الله كان عفواً قديراً » .. ليشير إلى أن صفة العفو فى الإنسان ـ وقد طلبه هنا : « أو تعفوا عن سوء » ـ لا تعد فضيلة له أو محل اعتبار وتقدير ، إلا إذا جاء العفو نفسه عن استطاعة فى البقاء على عدمه ، مع تحمل مسئولية التشدد فى الموقف .

● وإذا كان العفو هو التنازل عن قدرة فلا يكون الدافع إليه : هوى النفس . بل يجب أن تدفع إليه اعتبارات تتصل بالمجتمع ، أو بظروف من يقع منه العفو :

(ا) فمن الاعتبارات التى تتصل بالمجتمع : حاجة من وقعت منهم الإساءة إلى معاونة من وجهت إليهم هذه الإساءة . يقول الله تعالى :

«ولا يأتل (أى يحلف) أولو الفضل منكم والسعة : أن يؤتوا أولى القربى ، والمساكين ، والمهاجرين فى سبيل الله ، وليعفوا ، وليصفحوا ،

« ألا تحبون أن يغفر الله لكم ، والله غفور رحيم »[1] .. فقد نسب القرآن إلى بعض أصحاب الحاجة من الأقرباء ، والمهاجرين فى سبيل الله ، ومن عدلهم : أنهم شاركوا فى إساءة تتصل بأصحاب الفضل واليسار فى الأمة ـ وفى مقدمتهم أبو بكر رضى الله عنه ـ فبيت هؤلاء العزم وعقدوا اليمين على عدم مشاركة أولئكم فى أموالهم ، وسد حاجتهم منها . فجاءت الآية تتطلب العفو والصفح عن الإساءة التى وقعت ، وتطلب بالتالى : العودة إلى العلاقة التى كانت قائمة قبل . وهى علاقة المعاونة والمساعدة لاعتبار إنسانى ، هو الرحمة بأصحاب الحاجة فى المجتمع ، وفى ذلك مصلحة الأمة كلها .

وكان التعقيب فى الآية هو : لفت أنظار من وجه إليهم طلب العفو إلى أنهم من غير شك إذا أخطأوا ـ وهم من بنى الإنسان وليسوا فوقهم ـ

---

(١) النور : ٢٢ .

يودون أن يغفر الله لهم . ثم من جهة ثانية شمل هذا التعقيب لفت أنظارهم لما عليه الله من صفة : المغفرة والرحمة : «وكان الله غفوراً رحيما» . والمؤمن بالله هو من يتقرب إلى ذاته الكاملة : بالعمل على أن يتخلق بأخلاقه ، وأن يحاكى صفاته فى السلوك والمواقف .

(ب) ومن الاعتبارات التى تتصل بالمجتمع أيضاً ، فى شأن العفو : الإبقاء على التماسك فيه ، والمحافظة على قوته فى البناء . يخاطب القرآن رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله : « فبما رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك ، فاعف عنهم ، واستغفر لهم ، وشاورهم فى الأمر ، فإذا عزمت فتوكل على الله ، إن الله يحب المتوكين »[1] .. ويطلب إليه العفو عمن تولى وهرب من المسلمين فى « أحد » يوم التقى الجمعان ، حفاظاً على وحدة الأمة وقوتها فى مواجهة أعدائها ، رغم أن هذا البعض الذى دفعه إلى التولى : التعجل بالغنائم من الأعداء . ولم يطلب القرآن إلى رسول الله : العفو فقط ، بل طلب مع ذلك منه استغفار الله لهم ، وإشراكهم فى الرأى فيما يتصل بشئون الأمة ، إشعاراً لهم باعتبارهم وقيمهم فيها ، وتطميناً لنفوسهم . وقد سبق لله تعالى : أن عفا عنهم فيما تحكيه آية أخرى : « إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان ، إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا ، ولقد عفا الله عنهم ، إن الله غفور حليم » .

وتعقب الآية بوصف الله : بأنه حليم ، بعد وصفه بأنه غفور ، لتفيد : أن هؤلاء الذين أخطأوا يوم « أحد » بالانصراف إلى الغنائم وعدم الثبات فى أماكن القتال التى حددت لهم قبل انتهاء الموقعة .. يجب أن تعطى لهم فرصة أخرى لاختبار قوة إيمانهم ، ولا يؤخذون بقبولهم لإغراء الغنائم بعد الجولة الأولى فى الميدان . وللمصلحة العامة إذن أن يعفى عنهم .

---

(١) آل عمران : ١٥٩ .

(ج) ومن هذه الاعتبارات كذلك عدم التفريط فى حق عام . فقد وجه القرآن لرسوله صلى الله عليه وسلم فيما تذكره الآية : « عفا الله عنك ، لم أذنت لهم ، حتى يتبين لك الذين صدقوا ، وتعلم الكاذبين »[1] .. أن الله قد عفا عنه، وأنه ما كان ينبغى له أن يجيب بعض المؤمنين — وهم فى حقيقة أمرهم من المنافقين — إلى ما طلبوا من القعود عن القتال . فالعتاب الذى يوجهه القرآن إلى الرسول — صلى الله عليه وسلم — خاص بسياسة الأمة ومصلحتها فى وقت الحرب والقتال . والسياسة الحكيمة فى هذا الوقت : هى التعرف على العناصر الانتهازية فى الداخل التى تضمر العداء للإيمان بالله فى الواقع ، وتتستر وراء إعلان الإيمان ، ولا تتردد فى هذا الوقت أن تتآمر ضد الأمة وسلامة أمنها . والتعرف على هذه العناصر : من حق الأمة والمصلحة العامة ، قبل حق القائد فيها . ولذا لا ينبغى السماح بما يعوق هذه المصلحة .

فعفو الله إذن عن الرسول: لهؤلاء الانتهازيين بالقعود عن المشاركة فى القتال.. كان تطميناً لخاطره فقط . ولكنه أكد حق المصلحة العامة بعتابه ، وبتوضيح خطورة الأمر ، فيما لو عدل عن السياسة الواجبة الاتباع فى هذا الوقت . وقد كشف أمرهم فى قوله : « لو كان عرضاً قريباً وسفراً قاصداً لاتبعوك ، ولكن بعدت عليهم الشقة ، وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم ، يهلكون أنفسهم، والله يعلم : إنهم لكاذبون »[2] .

أما الاعتبارات التى تتصل بظروف من يقع منه العفو فترجع إلى الرغبة فى « رده الصدع » وعدم اتساع شقة الخلاف ، والعودة إلى العلاقة التى تقوم على صفاء النفوس . ومن يعفو عندئذ فهو من المحسنين ، أصحاب التهذيب فى إنسانيتهم. وقد جاء فى وصف أصحاب الإحسان من المؤمنين قوله تعالى : « الذين ينفقون فى

---

(١) التوبة : ٤٣ . (٢) التوبة : ٤٢ .

obeikandl.com

صورة مقنعة . ولا يضعها حداً فى تطور مراحل الإنسان إلا تكوين عادات أخرى عن طريق الدين والخشية من الله ، والتقرب إليه كذلك . وعبادتا الصـــوم والزكاة لهما دورهما الواضح فى الحد من أنانية الإنسان ومن دفعه إلى وعى « الوجود المشترك » بينه وبين غيره فى مجتمعه وأمته . وعن هذا الوعى بالوجود المشترك لا يخفف الإنسان من أنانيته ، بالإمساك عن « خطف » ما بيد الغير فحسب — كما يفعل الطفل — وإنما يسلك سلوكا آخر مقابلا لمسلك الأنانية ، وهو : أنه يعطى لغيره ، دون أن يأخذ بديلا عما يعطى .

و « الغضب » الذى يباشره الإنسان الذى تجاوز مرحلة الطفولة هو ظاهرة « لشره » الأنانية التى تبدو فى سن الطفولة ، والتى بقيت رواسبها متمكنة فى نفس الغاصب . لأن هذا الغاصب لم يعود على عادات أخرى ، تحمله على الوعى بالوجود المشترك بينه وبين غيره .

و « القناعة » التى يوصف بها الإنسان « القنوع » هى : « الرضى » بما يقع فى يد الإنسان القانع وبما يقسم له من متع الحياة . فإذا تطورت « القناعة » إلى الرضاء « عما يفى الحاجة » من مال القانع كانت القناعة عندئذ خلقاً إنسانياً كريماً .. كانت فضيلة .. كانت أمارة قربى إلى الله تعالى . فرضاء الإنسان بما قسم له فى الحياة أو بما وقع فى يده مما يدفع به الإنسان حاجته فى الحياة من أجل العيش ، هو فى واقع الأمر : رضاء « بقدر الله » جلا جلاله : « وأنه هو أغنى وأقنى »[1] . والرضاء بقدر الله هو طاعة الله وقربى إليه فى الوقت نفسه . ولكن الرضاء بما يفى بالحاجة مما يملك القانع مع القدرة على ما فوق الحاجة .. أى مع القدرة على الترف ، هو رضاء عن إرادة ومشيئة ، وليس رضاء عن عجز أو فقر . فهو أكثر قربى إلى الله . وهو أدخل فى إنسانية الإنسان ، إذا أنفق ما زاد عن حاجته فى سبيل الآخرين .. فى سبيل حاجاتهم المتنوعة .

---

(١) النجم : ٤٨ .

وهنا لا يعد البخيل أو المقتر على نفسه وأهله ورحمه « قانعاً » أى صاحب رضاء بما يفى بحاجته مع القدرة فوق الحاجة . لأن البخيل يمسك مازاد عن الحاجة لنفسه ـ وربما لنفسه فقط ـ فهو أنانى يشبه ذلك الطفل صاحب « الشره » فى جمعه لنفسه كل ما يقع عليه بصره ، وإن لم تكن به حاجة .

أما ذلك الذى يأخذ قدر حاجته من ماله ويترك الباقى منه لغيره فهو إنسان تمكنت منه الإنسانية التى تتمثل فى الوعى بوجود الآخرين معه، وبحقهم فى الحياة .

وهنا الآن ثلاث صور للإنسان فى علاقته بما يحيط به من متع الحياة وإغرائها :

الصورة الأولى :

للطفل فى مرحلة طفولته . وهى صورة الأنانى الشره فى تحصيل ما يستمتع به ، لحاجة أو غير حاجة .

والصورة الثانية :

للإنسان الذى تجاوز مرحلة الطفولة ، ويرضى بما قسم له فى الحياة وبما يصيبه من متعها . فهو إنسان طيع لله وراض بقدره .

والصورة الثالثة :

للإنسان الذى يرضى بما يفى بالحاجة من المال الوفير الذى يملكه ، على أن يترك الزائد لغيره . فهو لا يرضى عن عجز وفقر ، وإنما عن قدرة وإرادة . . وإنما عن تقرب إلى الله وعن مزيد فى طاعته .

وهذه الصورة الثالثة تعكس الإنسانية وقيمها . لأنه إذا كان الإنسان الطفل لم يزل بأنانيته وهواه وغرائزه فى دائرة الحيوان فلا يعرف إلا نفسه وذاته ، فهذا الإنسان الذى يشرك غيره فيما يملك : يوجد الآن فى دائرة الإنسانية ، التى تقابل تماماً دائرة الحيوان فى فصائله المختلفة .

ومن هنا كانت « القناعة » عن مقدرة : تقرباً للإنسان لما عليه المولى جل جلاله فى غناه . فإذا وصف سبحانه نفسه بالغنى ، على نحو مايذكر القرآن الكريم

فى قوله : « واعلموا أن الله غنى حميد » وفى قوله : « ومن كفر فإن الله غنى عن العالمين » . . فغناه جلت قدرته غناء ذاتى ، أى أنه اكتفى ـ ويكتفى ـ فى وجوده بذاته ، وليست له حاجة إلى غيره .

والذى يقنع عن إرادة بما يفى بحاجته من ماله ، على أن يترك الباقى لغيره ، هو أشبه بأن يحقق لنفسه اكتفاء ذاتياً . إنه يوم تكون له حاجة يحاول أن يستغنى عن تلك الحاجة ، ولا يسأل غيره . وهو إذ يحاول الاستغناء عن الحاجة وعدم سؤال الغير يستعين بالصبر و بالتحمل . فهو كريم على نفسه ، ولا يتركها لمذلة السؤال إن إحتاج ، حين يعطى غيره إن ملك .

● **المعـــروف :**

● تأتى كلمة : « المعروف » فى آيات عديدة فى القرآن الكريم ، وتأتى وصفاً : لقول ، أو فعل ، أو سلوك . ومعناها المشترك فيما تأتى به ، هو : غير المنكر فى عقول الناس . فإذا وصف بها القول على نحو ما تذكر الآية : « ويقول الذين آمنوا : لولا نزلت سورة ، فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال ، رأيت الذين فى قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشى عليه من الموت ، فأولى لهم . طاعة ، وقول معروف ، فإذا عزم الأمر ، فلو صدقوا الله لكان خيراً لهم »[1] . . فإن المراد عندئذ بالقول المعروف : القول غير المنكر وغير المستهجن فى عقول الناس ، وهو القول الصدق . ولذا كان التعقيب فى هذه الآية : « فلو صدقوا الله لكان خيراً لهم » . إذ عندما سأل المنافقون : سورة فى القرآن يحدد فيها طلب القتال من المؤمنين ، كانوا كاذبين مع أنفسهم فيما طلبوه . بدليل أنهم عندما طلب القتال بالفعل — عن طريق الوحى — ذهلوا ونظروا إلى الرسول عليه الصلاة والسلام نظرة الخائف المرتعد من الموت : « فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر

(١) محمـد : ٢٠ ، ٢١

فيها القتال رأيت الذين فى قلوبهم مرض (وهم المنافقون) ينظرون إليك نظر المغشى عليه من الموت » . ولذا : كان نصح القرآن إليهم : أن يلتزموا الطاعة فيما يؤمرون به ، إن كانوا مؤمنين حقاً ، كما يحرصوا على أن يكون قولهم معروفاً ، أى غير منكر فى عقول الناس . وهو القول الصدق المعبر عن الحقيقة : « فأولى لهم : طاعة ، وقول معروف » .

وإذا جاءت ـ كلمة المعروف ـ وصفا لفعل ، كما فى قول الله تعالى : « وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح ، فإن آنستم منهم رشدا ، فادفعوا إليهم أموالهم ، ولا تأكلوها إسرافاً وبداراً أن يكبروا ، ومن كان غنياً فليستعفف ، ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف ، فإذا دفعتم إليهم أموالهم فأشهدوا عليهم ، وكفى بالله حسيبا[1] » .. فالقصد بالأكل بالمعروف، هو : الأكل غير المنكر فى عقول الناس، وهو الأكل المعتدل ، البعيد عن الاستغلال . إذ نهى الآية فيما تذكر : « ولا تأكلوها إسرافاً ، وبداراً ، أن يكبروا (أى لا تأكلوا أيها الأوصياء أموال اليتامى منتهزين فرصة صغرهم فى السن عند مباشرتكم لاستثمارها ، بسبب إسرافكم ووقوعكم تحت تأثير الاتجاه المادى فى الحياة) » . إذ نهى الآية عن عدم المساس بأموال اليتامى على هذا النحو . . يجعل الأصل فى الوصاية على هذه الأموال : صيانتها وإبعادها تماماً ، عن أن تكون نهباً للضياع فى أية صورة . وهذا معناه : أن الوصى لو كان فى إشرافه على مال اليتيم ، فى حاجة لأن يأخذ منه نظير جهده فى المباشرة — وليس له من مال خاص ما يعوضه عن هذه الحاجة — فإن أخذه من هذا المال عندئذ : يجب أن يكون أخذاً غير منكر فى عقول الناس : « ومن كان غنياً فليستعفف ، ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف » . وغير المنكر فى

---

(١) النساء : ٦ .

عقول الناس في الأخذ من مال اليتيم هو الأخذ بالاعتدال ، بحيث يبتعد فيه عن معنى الاستغلال .

وإذا أتت — كلمة المعروف — وصفاً لسلوك وموقف ، كما في قوله جل شأنه : « وإذا حضر القسمة : أولو القربى ، واليتامى ، والمساكين ، فارزقوهم منه وقولوا لهم : قولا معروفا »[١] .. فموقف أصحاب التركة هنا تجاه الأقرباء ، واليتامى والمساكين ، إذا ما حضروا قسمتها ، هو : إعطاؤهم شيئاً من الإرث ، مصحوباً هذا الإعطاء بلين القول لهم . أى مصحوباً بتعبير لا تنكره ولا تستهجنه عقول الناس . وهو التعبير اللطيف ، البعيد عن الإيذاء المعنوى . إذ العطاء المادى ، لمن هو فى حاجة إليه ، لا يدل على طبيعة خيرة من المعطى ، ولا على إنسانية فيه ، إن المعطى آذى بالقول النابى : صاحب الحاجة ، حين يقدم له عطاءه .

• وإذا أحال القرآن الحكيم على كثير من تصرفات الناس ، ومواقفهم ، وسلوكهم ، إلى : المعروف .. فإنما يحيله إلى العقل العام فى الناس .. أى إلى ما تتفق العقول فى [illegible] ، ولا شك أن هناك قدراً مشتركاً بين الناس جميعاً يحدد معالم المنكر ، [illegible] يحدد معالم المعروف ضده . والمعروف والمنكر إذن أمران متقابلان : أحدهما مرغوب فيه ، والآخر مرغوب عنه : « كنتم خير أمة أخرجت للناس : تأمرون بالمعروف ، وتنهون عن المنكر ، وتؤمنون بالله »[٢] .. فجمع الآية هنا بين المتقابلين ، [illegible] يمكن أن يحدد مفهوم أحدهما بالضد من مفهوم الآخر .

• الصبر :

• [illegible] القرآن الكريم [illegible] « الصبر » فى قول الله تعالى :

(١) النساء : ٨ . (٢) آل عمران : ١١٠ .

« إنما يتذكر أولو الألباب :

١ — « الذين يوفون بعهد الله ، ولا ينقضون الميثاق .

٢ — « والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل .

٣ — « ويخشون ربهم ، ويخافون سوء الحساب ،

٤ — والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم ،

٥ — « وأقاموا الصلاة ،

٦ — « وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية ،

٧ — « ويدرأون بالحسنة السيئة ، أولئك لهم عقبى الدار . »[1] .. فجعل القرآن الصبر ـ ابتغاء وجه الله ـ فى مستوى الوفاء بالعهد وعدم نقض الميثاق ، وفى مستوى صلة الرحم والأقارب والجيران ، وفى مستوى الخشية من الله فى كل عمل يعمل وفى نية تنتوى ، وفى مستوى إقامة الصلاة ، وإنفاق المال فى سبيل الله سراً وعلنا ، وفى مستوى دفع الإساءة بالإحسان والتهذيب وكرم النفس . وجعل الذى يرعى هذه الصفات ويتعود عليها من أولى الألباب ، وأصحاب الحكمة فى السلوك الإنسانى ، ثم له فى الآخرة الجزاء الأوفى .

• هل الصبر ابتغاء وجه الله هو الاستسلام للمذلة والمهانة ؟ .

هل هو السكوت عن عدم فاعلية ، وعدم استطاعة بشرية ؟

أم هو ضبط النفس والتحمل فى سبيل أداء ما يجب أداؤه ؟ .. أم هو الصبر ابتغاء وجه الله فيتحمل صاحب الرسالة فى سبيل أداء رسالته ، ورب الأسرة فى رعاية أسرته وتوجيهها ، وصاحب الوظيفة فى أداء واجب وظيفته ، والقاضى فى سبيل تحرى العدل ، والحاكم فى سبيل إحقاق الحق وإقرار الطمأنينة والأمن ،

---

(١) الرعد : ١٩ ـ ٢٢

والفرد فى سبيل سيطرة حكمته على هواه ، والأم فى سبيل رعاية أولادها وسلامة صحتهم وعقولهم . . وهكذا ؟ .

إن التعامل مع الآخرين فى مجال الحياة المشتركة كما يحتاج إلى التروى يحتاج إلى الهدوء والسيطرة على الأعصاب ، كى يكون أسلوب المعاملة غير ضار بأحد. والصفة أو الطبع الذى يوفر للإنسان الهدوء والسيطرة على الأعصاب هو الصبر ابتغاء وجه الله . . أى هو التحمل فى سبيل النفع العام وتحقيق المصلحة العامة المشتركة . وعندئذ يكون الصبر صفة فى مستوى الصفات الأخرى التى أشادت بها الآيات السابقة ، والتى لاتوجد فعلا إلا إذا كان المتصف بها يحد من أنانيته ، ويحد كذلك من مطالب ذاته فى مصلحة الآخرين .

وهنا الاستسلام للمهانة ، والسكوت عن عجز وعدم فاعلية . . لا يتصل أى منهما بصفة الصبر ، ولا بالطاقة على التحمل .

• الصبر ـ كصفة فاضلة ـ يتطلب القدرة .. القدرة على الاحتمال وضبط النفس . يتطلب ممارسة وتدريباً على السيطرة على هوى النفس وانفعالاتها ، وعلى الرجوع إلى العقل والتروى فى مواجهة الشدة والأزمة أو فى مواجهة المشاكل ، لتحليلها والوقوف على النتائج التى تترتب على كل اتجاه أو موقف فيها . ولذا كان توجيه القرآن للرسول ، عليه الصلاة والسلام عند مباشرته الدعوة للإسلام ، يقوم على أمرين :

أولا : على العمل على صفاء النفس بقيام الليل وتلاوة ما نزل من القرآن فيه.

وثانياً : بالصبر على المعارضين لرسالته والمتنكرين له ، فى تهذيب وإنسانية . على نحو ما جاء فى سورة المزمل : « إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا (وهو الوحى بالقرآن) . إن ناشئة الليل هى أشد وطأ وأقوم قيلا» .. ثم يقول : « واصبر على

ما يقولون (أى على ما يقول الأعداء) واهجرهم هجراً جميلا (أى ليس فيه إيذاء لك ولا لهم)» .

منذ بدء الدعوة إلى الرسالة كان «الصبر» مطلوباً من الله لرسوله الكريم ، ومأموراً به إياه . لأنه عامل رئيسى فى النجاح ، وفى دفع الهزيمة . ولكى يؤكد القرآن أهمية الصبر فى النجاح ، يأتى قوله مخاطباً المؤمنين : « إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين » .. فصفة الصبر لا تجعل العدد القليل عند اللقاء والمواجهة يساوى فى القوة : العدد الكثير ، بل تجعله يتفوق عليه . ولذا يكون النصر للجانب الذى صبر مع قلة عدده ، ضد الجانب الآخر مع كثرته العددية .

إن القوة المعنوية هى أشد فعالية من القوة المادية ، لأنها فى حقيقة الأمر هى قوة الإنسان . والقوة الإنسانية هى دائماً قوة نافذة ومستمرة لغدها . وفى كل ما ينصح به الإسلام فى سبيل القوة يركز على القوة المعنوية والإنسانية فى الدرجة الأولى : « يا أيها الذين آمنوا : استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين . ولا تقولوا لمن يقتل فى سبيل الله ، أموات ، بل أحياء ولكن لا تشعرون . ولنبلونكم بشىء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات . وبشر الصابرين . الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا : إنا لله وإنا إليه راجعون »[1] . فهو ينصح بالصبر والصلاة فى القتال فى مواجهة الأعداء .. وينصح بالصبر والصلاة فى مواجهة أزمات الحياة والشدة ، التى تطرأ بسبب الخوف ، والجوع ، ونقص الأموال والأنفس والثمرات . . ثم يعد بالنصر فى القتال ، وباجتياز الأزمات والشدائد فى سلام ، لأولئكم الصابرين . ويخص الصبر بالذكر هنا لا لأن أهميته تفوق أهمية الصلاة فى الإنجاح ، ولكن فقط ليؤكد أهمية الصبر ودوره فى الإنقاذ فى النجاة ، ثم الاستمرار فى الحياة .

---

(١) البقرة : ١٥٣ — ١٥٦ .

إنه ينصح المؤمنين بالصبر والصلاة ، لأن فى كل منهما شد للعزيمة فى المواجهة : فى الصلاة يذكر المؤمن : الله والإيمان به . وفى الصبر يتذكر : أنه ابتغاء وجه الله . فلا دنيا تتسلط عليه .. ولا بدن يشده إلى مطالبه . وإنما الإنسانية فى قوتها تواجه القتال ضد أعداء الإنسانية ، وتواجه الأزمات المادية .

إن الصبر قوة احتمال . وعزم على الاستمرار فى الاحتمال ، وإيمان بغايته وهدفه . وهو ابتغاء وجه الله ، ونصرة الحق ودين الله : « يا أيها الذين آمنوا : اصبروا ، وصابروا ، ورابطوا ، واتقوا الله لعلكم تفلحون[1] » .

● **الابتـــلاء :**

● خلق الإنسان فى هذه الدنيا لرسالة خاصة . وليست هذه الرسالة فى : أنه يوجد فترة من الزمن ثم ينتهى أمره .. وليست : أنه يحيا ويموت ، دون أن تكون له مهمة وراء خلقه ، ووراء حياته وعيشته فى الحياة فى دنياه : « تبارك الذى بيده الملك ، وهو على كل شىء قدير . الذى خلق الموت والحياة ، ليبلوكم أيكم أحسن عملا[2] » .. فهيئت الإنسان أسباب الحياة .. ثم أسباب الموت بعدها ، ليمارس الإنسان نشاطا معيناً فى حياته — غير نشاط المحافظة على بقائه بالأكل والشرب ، والنسل — هو نشاطه الإنسانى ، كى يمكن أن يظهر تفاوت الأفراد والمجتمعات فى مباشرة هـذا النشاط وأدائه ، ودرجة مستواه : « ليبلوكم : أيكم أحسن عملا » .

وفيما تذكره سورة الإنسان فى قول الله تعالى : « إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه ، فجعلناه سميعاً بصيراً . إنا هديناه السبيل : إما شاكراً ، وإما كفوراً[3] » .. يتضح تكوين الإنسان وطبيعته فى خلقه ، كما يتضح الهدف.

---

(١) آل عمران : ٢٠٠ .
(٢) الملك : ١ ، ٢ .
(٣) الانسان : ٢ ، ٣ .

الحقيقى من تكوينه على نحو معين . وهو يختلف فيه عن الطبائع الأخرى المخلوقة معه فى كون الله ، سبحانه جل شأنه . فالآية الأولى من هاتين الآيتين تشير إلى نمط تكوين الطبيعة الإنسانية ، وأنها تكونت أولا : تكويناً مادياً من نطفة مختلطة مما للذكور والأنوثة الإنسانية معاً .. وأنها ثانياً : أعدت بوسائل الإدراك لما يحيط بها من وجود وعالم خارجى عن ذاتها ، وفى مقدمة هذه الوسائل : السمع ، والبصر . وبهذا التكوين الثانى : الهدى ، والعقل . كانت طبيعة الإنسان طبيعة وحيدة فى عالم المخلوقات . ولتفردها عما سواها : أعطيت للإنسان الخلافة والقيادة فى عالم الوجود الذى يعيش فيه .. والآية الثانية منها تشير لكى يؤدى الإنسان خلافته ، ويسير بقيادته لعالم ما يعيش فيه : فى هدى ، وفى غير حيرة — تشير إلى هداية الله له فى رسالة رسله ، بعد ما تبين من التجربة التى مر بها آدم وحواء فى الجنة : أن العقل البشرى وحده غير كاف فى التبصير بطريق الحق والصواب دائماً . إذ مع إعداد الإنسان بالعقل فى طبيعته ، ومع معاونته بعد ذلك بهداية الله فى رسالته ، قد يجنح الإنسان ، ويضل عن الحق كما قد يتجنب الصواب تحت تأثير الجانب المادى فى خلقه وتكوينه : « إنا هديناه السبيل : إما شاكراً وإما كفوراً » .

وإذن الإنسان فى حياته الدنيا : مطلوب منه أن يسلك السبيل الذى يليق بإنسانيته ، ويتميز به عن المخلوقات الأخرى .. مطلوب منه : أن ينشد الحق فى ذاته ، والصواب فى ذاته ، وأن يجنب ذاته طغيان ماديته التى تتمثل : فى هواه ، وشهوته ، على عقله . . مطلوب منه : أن يسترشد بهداية الله ، مع عقله ، نحو الحق ، ونحو الصواب . ومع ذلك ليس معصوماً عن الخطأ فيهما . ولكنه يبذل جهده فى السعى نحوهما ، والوصول إليهما .

وهنا : كان الإنسان فى حياته فى الدنيا . . إلى موته ، فى وضع الممتحن ،

والمختبر ، والمبتلى ، الذى قد يخفق فى امتحانه واختباره وابتلائه ، وقد ينجح فيها :

١ — فى حياة الإنسان يوضع الإنسان أمام المغريات التى تجذبه نحوها ، وهى الخير والنعم .

٢ — ويوضع كذلك أمام الشدائد والأزمات التى تثير اليأس وفقدان الأمل ، وهى الشر ، والفقر والحرمان . وهو إذ يوضع أمام الخير والنعم ، يطلب منه : أن لا يطغى بخير الله ونعمه من : مال ، وأولاد ، وجاه ، ورياسة فى قومه .. كما يطلب منه أن يراعى حق الآخرين معه فى الحياة ، كما يرعى حق ذاته من هذه النعم والخيرات ، سواء بسواء . وإذ يوضع أمام الشر والمصائب،والفقر والحرمان، يطلب منه : الصبر وعدم اليأس من رحمة الله . كما يطلب منه : أن يرعى من معه فى وجوده وعلى نحو من وضعه ، فلا يشيع بينهم : الجزع والقلق ، ولا عدم الثقة فى تدبير الله .

والإنسان إذن مبتلى بالشر والخير : على السواء : « كل نفس ذائقة الموت ، ونبلوكم بالشر والخير ، فتنة ، وإلينا ترجعون »[1] .

قد يبتلى الله الأنفس بالحرب والقتال ، ليظهر مدى تضحيتها وتحملها فى سبيل الإيمان ، وليوضح درجة كل نفس فى مستوى التضحية والتحمل : « ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم ، والصابرين ، ونبلو أخباركم »[2] . والحرب شر ، والقتال شر . على معنى أن النفوس لا تقبل عليه ، كما تقبل على نعم الدنيا ، وأنها تهرب منه بوسيلة أو بأخرى . ولكن لا مفر من أن يوضع الإنسان أمامه ، اختباراً لقوة إيمانه ، وجديته فى الحياة ، وامتحاناً لتحمله فى سبيله .

وفى القتال من أجل الإيمان بالله ، كان يمكن للمولى جلت قدرته أن يكون

---

(١) الأنبياء : ٣٥ .

(٢) محمد : ٣١ .

فى صف المؤمنين ، وأن يجعل النصر حليفهم ، لا يهزمون أبداً . ولكن عندئذ لا يكون القتال ابتلاء وامتحانا لإيمان المؤمن . لأن النجاة مضمونة فيه للمؤمن آنئذ ، والهزيمة مكفولة فيه للأعداء كذلك . وبما أن الإنسان وضع فى حياته أمام : الخير والشر : سواء ، لتتميز الأفراد والجماعات فى موقفها من كل منهما ، وفى نوع السلوك الذى تسلكه : أهو سلوك يتلاءم مع إنسانية الإنسان ، أم هو سلوك ينزل بالإنسان إلى درجة المادية والحيوانية فيه . . من أجل ذلك كان نصر الله مكفولا فحسب لأصحاب اليمين .. أصحاب المستوى الإنسانى الكريم : «..ولو يشاء الله لانتصر منهم (أى من الأعداء) ولكن ليبلو بعضكم ببعض ، والذين قتلوا فى سبيل الله فلن يضل أعمالهم »[1] .

• وقد يبتلى الله الأنفس كذلك بصور أخرى من صور الشر . فيبتليها بضياع الأموال ، أو بموت النفوس العزيزة التى يحرص الناس عليها كحرصهم على الأموال ، أو بإيذاء الأعداء إيذاء معنوياً تضعف الطاقة الإنسانية على تقبله . ومن شأن هذه الصور من الإبتلاء بالشر : أن تزحزح النفوس عن ثباتها ، وتخلق فيها القلق على الحياة فى غدها ، قبل يومها . فالذى يضيع ماله بسبب حادث من الأحداث يتصور : أن مستقبله قد ضاع ، لأنه فقد سنده فى الحياة . والذى يتولى الموت خطف عزيز عليه كان يوصل إليه منفعة ، أو تترقب فيه المنفعة العاجلة أو الآجلة ، قد يغلب عليه الوهم والتخيل فيعتقد:أنه نفسه قد ضاع ، وأصبح بلا أمل. والذى يؤذى فى إيمانه ، وفيما يتمسك به من عقيدة أعز عليه من نفسه ، إن كظم غيظه فقد لا يجد السبيل القريب للتفريج عن ألمه وحزنه ، وإن لم يكظم هذا الغيظ فقد يلجأ إلى الحمق والتهور فى التصرف ، تجاه مصدر ألمه وحزنه .

وموقف الإسان من أى من هذه الصور للشر ، هو: الصبر ، والالتجاء إلى

---

(١) محمد : ٤ .

الله وحده ، باتباع هدايته فى السلوك ، والاستقرار فى طريق الحق ، دون غيره . ومن يصبر ينل . ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ، ولو بعد حين : « لتبلون فى أموالكم ، وأنفسكم ، ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ، ومن الذين أشركوا أذى كثيراً ، وإن تصبروا وتتقوا ، فإن ذلك من عزم الأمور »(١) .. والصبر والتقوى من الأمور التى تحتاج إلى عزم وإرادة قوية ، ونية صادقة ، يتعود عليها الإنسان المؤمن بأداء عبادة : الصوم ، وممارستها عدة مرات فى حياته .

● وقد يبتلى الله الأنفس بزينة الدنيا ، وما هيأه على الأرض من أسباب النعم والرخاء ، والقوة ، والسيادة ، ليبين للناس أنفسهم : إلى أى نوع يكون موقفها منها : أهو موقف الأنانيين ، أصحاب الهوى والشهوة ؟ . أم هو موقف أولئكم الذين يشكرون الله على نعمه ، بإشراك المعدومين ، والمحرومين ، والضعفاء ، فيما أنعم به الله عليهم ؟ : « إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها ، لنبلوهم : أيهم أحسن عملا ؟ »(٢) .

وقد يكون ابتلاء الله بما أنعم به على فريق من الناس ، لأولئكم الآخرين الذين كان حظهم من متع الدنيا أقل شأناً ، وأدنى منزلة : أهم سيقفون من حظ من أنعم الله عليهم بوفرة ، وفضلهم بنعمهم على من عداهم : موقف الحاقدين والحاسدين ؟. أم سيمارسون الصبر والتحمل ، إزاء ما قسم الله لهم من حظ أدنى ، ويبقون على إيمانهم فى ثبات ، وعلى توكلهم على الله فى ثقة ؟ : «وهو الذى جعلكم خلائف الأرض ، ورفع بعضكم فوق بعض درجات : ليبلوكم فيما آتاكم ، إن ربك سريع العقاب ، وإنه لغفور رحيم »(٣) ... فهنا ثلاث قضايا :

---

(١) آل عمران : ١٨٦ .
(٢) الكهف : ٥
(٣) الأنعام : ١٦٥ .

الأولى : خلافة الإنسان على الأرض ، فى أداء رسالة الله فى مجتمعه عليها .

والثانية : تفاوت بعض الناس فى الرزق ونعم الله ، ومتع هذه الحياة الدنيا .

والثالثة : أن هدف هذا التفاوت هو : اختبار لمن أعطى وأنعم عليه كثيراً ، وكذلك اختبار لمن أعطى أقل ، أو حرم من العطاء .

وهذا الاختبار ينتهى أمره : إما بعقاب الله إن طغى بعطائه الكثير ، أو قلق ويئس ، بسبب حظه القليل : « إن ربك سريع العقاب » . وإما ينتهى أمره بزيادة فضل الله لمن شكره على نعمته بإشراك الآخرين معه ، وتفريج كربة المأزوم ، وكذلك من أعسر فى فترة حياته إن صبر وتحمل وبقى على ثقته فى الله .

• ولكن موقف الطبيعة البشرية عادة من ابتلاء الله — قبل الأخذ بهداية الله — هو موقف الأنانية : يظن الإنسان إن حباه الله بنعم وفيرة : أنها أعطيت له لشخصه . ولذا لا يجعل للغير نصيباً فيها . وإن قدر عليه ، وقتر فى رزقه يظن كذلك — أو يعتقد — أن الله : استهدف ذاته ، فينعى حظه ، ويسلك مسلك الناقمين والحاقدين : « فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه ، فيقول : ربى أكرمن. وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه (أى قتر عليه فى الرزق) فيقول: ربى أهانن »[1] .

إن الإنسان فى هذه الحياة لابد وأن يواجه نعماً ، وخيرات ، وعطاء من الله : إن فى الأموال ، والأولاد ، والصحة ، والجاه ، والقوة . وإما أن يواجه مصائب ، وفقراً وحرماناً ، وشروراً فى صور عديدة .

فإن واجه الأولى فليشكر الله باقتسام هذه النعم على أصحاب الحاجة ممن معه فى أمته ، وتسخيرها فى الصالح العام . وإن واجه الثانية فليصبر ،

---

(١) الفجر : ١٥ ، ١٦ .

وليتحمل فى سبيل الضيق والحرج : « فإن مع العسر يسراً . إن مع العسر يسرا » .ولا يفقد ثقته فى الله أبدا . وهو فى كلتا الحالتين حامد لله على أن هداه للإيمان ، وإلى الصراط السوى .

والخير والشر هو بحسب تقدير الإنسان وحده . أما الله جلت قدرته فلا يبغى فى واقع الأمر مما يسمى خيراً أو شراً ، سوى خير الإنسان . وحكمته فوق تقدير الإنسان وفوق نظرته فى أمور الدنيا .

obeikandl.com

ب ـ فى دائرة الانحراف .. و الفساد :

- الفحشاء ، و المنكر ٢٣٩
- الجـاهلية ٢٤١
- السـفه ٢٤٤
- التبـذير ٢٤٧
- الاسراف ٢٤٩

obeikandl.com

obeikandl.com

* **الفحشـاء ، والمنكر :**

• إذا ذكرت فى القرآن الكريم كلمة : « المنكر » — دون ذكر الفاحشة — فإنه يراد بالمنكر : كل جريمة اجتماعية . أى كل جريمة تتجاوز آثارها الشخص الذى ارتكبها ، إلى المجتمع الذى يعيش فيه . فإذا قال الله تعالى : « ولتكن منكم أمة (أى جماعة) يدعون إلى الخير، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر »[1] .. فإن المنكر الذى يجب أن تنهى عنه الأمة هنا ، هو : جرائم : الزنا ، والقتل ، والسرقة . وهى الجرائم الاجتماعية التى حددت لها حدود خاصة ، فيما جاء فى كتاب الله .

وإذا اقترنت : الفاحشة ، بالمنكر ، كما فى قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا : لا تتبعوا خطوات الشيطان ، ومن يتبع خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء ، والمنكر »[2] .. إذا اقترنت الجريمتان ببعضهما — على هذا النحو — كان القصد من الفحشاء أو الفاحشة : جريمة الزنا وحدها ، كما جاء وصفه فى قوله: « ولا تقربوا الزنا ، إنه كان فاحشة وساء سبيلا »[3] . أما المنكر فيبقى عاما ، يشمل الجريمتين الأخيرتين : القتل ، والسرقة .

• وهذه الجرائم الثلاث جرائم اجتماعية ، وليست شخصية أو فردية ، وإن باشرها فرد . فجريمة : الزنا ، جريمة : عرض ، ونسل ، ومسئولية . فإن وقعت من شخص مع آخر ، فإن أثرها يتعدى الشخصين اللذين اشتركا فيها ، إلى النسل الذى قد يأتى منهما ، بأن يظل الولد غير معروف الأب على سبيل الحقيقة ، أو إلى المجتمع نفسه . وعدم معرفة الولد لأبيه يكون سبباً فى عدم تحديد المسئولية فى شأن رعايته والقوامة عليه ، وربما ينمو طفل فى المجتمع فى غير ظل رعاية أبويه .

---

(١) آل عمران : ١٠٤ . (٢) النـور : ٢١ .
(٣) الاسراء : ٣٢ .

وفى غير مسئولية معينة من أحد عليه . ولذا يتكون لديه إحساس نحو المجتمع ، يختلف عن أحاسيس الآخرين الذين جاءوا إلى الحياة معه ، ولكن جاءوا فى صراحة وعلن وفى غير خفية وتستر ، وفى رعاية أب معروف ، وفى قوامته طوال فترات نموه . وهذا الإحساس المختلف عند الطفل الذى لايعرف أباً له ، هو : إحساس المنبوذ . أو المشرد . ومن هنا يبتلى المجتمع المعافى حتى الآن ، بمرض اجتماعى ، هو مرض الطفولة المنبوذة ، أو المشردة . والسبب فى هذا المرض إذن ، هو : الزنا . ولذا : كانت جريمته جريمة اجتماعية .

وجريمة القتل جريمة : اعتداء على حياة فرد ، وحياة أمة معاً . فالفرد الذى يعتدى عليه بالقتل ليس هو آخر الأفراد الذين يقتلون . وإنما التهديد بالقتل قائم بالنسبة لكل فرد فى المجتمع . والمجتمع — ككل — مهدد بالفناء ، إذا انتشرت هذه الجريمة ، واتخذت وسيلة للقضاء على الخصومة ، أو لاقتناص فرص الحياة ، أو طريقاً للاستيلاء على مال الغير .

وجريمة السرقة اعتداء على مال فرد من جهة ، وعلى منفعة الآخرين عداه ، فى هذا المال الذى يسرق من جهة أخرى . إذ نظرة الإسلام إلى المال : أنه ، إن أقر فيه الملكية الخاصة ، فإنه يربط بهذه الملكية الخاصة ، أداء المال لوظيفته الاجتماعية ، وهى المنفعة العامة للآخرين . على نحو مايذكر الله جل شأنه فى كتابه الكريم : « والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق ، فما الذين فُضلوا برادّى رزقهم على ما ملكت أيمانهم ، فهم فيه سواء (أى فمن يملك ومن لايملك ، سواء فى مال المالك له : من حيث الانتفاع به . ولذا لايمتن صاحب المال على من انتفع بماله ، عن طريق الأجر بالعمل فيه ، أو طريق التبرع له منه) أفبنعمة الله يجحدون ؟ (أى إذا لم تؤد المنفعة العامة للمال ، وكانت قاصرة على مالك

المال وحده، عد ذلك : نكراناً لنعمة الله ، ممن حباه الله بها) »[1].

والسارق ، إن باشر جريمة السرقة الآن ، يحرم صاحب المال من ماله ، ويحرم الآخرين الذين لا يملكون المال ، ولكن ينتفعون بملكية المالك له. ومن هنا كانت السرقة جريمة اجتماعية .

ومن أجل أثر هذه الجرائم الثلاث على المجتمع كان تعبير القرآن عنها — تنفيراً منها ، وحملا على عدم ارتكابها — بالفحشاء ، والمنكر، أو بالمنكر فقط ، والفحشاء ليس أمراً مستقبحاً فحسب . وإنما مستوى القبح فيه بلغ نهايته . والمنكر لا ينكره صحيح العقل والبدن وحده . وإنما أمر نكرانه لا يخفى على أحد ، يفرق فقط بين : الضوء والظلام ، والليل والنهار .

وكان تحديد الحدود التى جاء بها القرآن الكريم لهذه الجرائم الاجتماعية ، أمراً على سبيل القطع . حتى لا يكون هناك مجال للاختلاف فيها حسب العهود . والأمكنة ، طيل حياة الإنسان . فإن وقع اجتهاده فليس فى نوع الحد المقرر . وإنما فى الظروف التى تكتنف مباشرتها . « إن الله يأمر بالعدل ، والإحسان ، وإيتاء ذى القربى ، وينهى عن الفحشاء ، والمنكر والبغى ، يعظكم لعلكم تذكرون »[2].

● **الجاهلية :**

● يأتى مفهوم : « الجاهلية » فى آيات القرآن الكريم يحمل فى كل آية منها صفة من صفاته التى تميزه بأنه ظاهرة اجتماعية إنسانية ، قبل أن يكون وقتاً وزمناً خاصاً . فإذا قيل : إن ماقبل بعثة الرسول عليه الصلاة والسلام يمثل عصر الجاهلية .. فمعنى ذلك : أنه كانت هناك ظاهرة اجتماعية تغلب على المجتمع

(١) النحل : ٧١ .

(٢) النحل : ٩٠ .

البشرى ، هى ظاهرة القبلية فى علاقات المجتمع ، وظاهرة الأنانية فى علاقات الأفراد . وإذا كان معنى « الجاهلية » يشير إلى ظاهرة اجتماعية خاصة . . فإنها تتكرر فى وقت لاحق لبعثته عليه السلام ، فى كل مجتمع تتوفر فيه عناصرها .

• وعناصر مفهوم : « الجاهلية » التى تتجمع من خلال عرض القرآن الكريم فى آياته تشكل :

أولا : إتباع الهوى ، وعدم العدل فى الحكم . . أى مراعاة الأحساب والأنساب ، والتفرقة بين الناس حسب منازلهم . يقول الله تعالى : « وأن احكم بينهم (أى بين قبائل العرب جميعاً — وبين الناس كافة) بما أنزل الله (وما أنزل الله هو العدل المجرد) ولا تتبع أهواءهم (أى لاتسر فى الحكم وفق ميولهم ، فميولهم متأثرة بالمعانى والعادات القبلية) واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك (وذلك باتباع أهوائهم) فإن تولوا (أى وإن أعرضوا وغضبوا لأنك لم تتبع أهواءهم) فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم ، وإن كثيراً من الناس لفاسقون . أفحكم الجاهلية يبغون (أى أيريدون أن تقضى بينهم وفقاً للعادات القبلية ، وهى تلك العادات التى تفرق فى الحكم بين منازل الناس الاجتماعية) »[1].

وثانياً : مسلك الأنفة والغضب ، وعدم الاحتكام إلى العقل والمنطق . يقول الله تعالى : « وهو الذى كف أيديهم عنكم ، وأيديكم عنهم ببطن مكة ، من بعد أن أظفركم عليهم ، وكان الله بما تعملون بصيراً ... إلى أن يقول: إذ جعل الذين كفروا فى قلوبهم الحمية . . حمية الجاهلية (أى الغضب والحمق) فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وألزمهم كلمة : التقوى »[2] .. ففى صلح الحديبية

---

(١) المائدة : ٥٢ ، ٥٣ . (٢) الفتح : ٢٤ — ٢٦ .

بعد أن اقتنع المشركون بقوة المسلمين المتزايدة ، ووافقوا على أن لا يقفوا فى سبيلهم فى العام القادم .. إلى الحج بمكة ، جاءوا عند كتابة العهد بينهم وبين المسلمين ، وأظهروا حمقاً فى حذف بعض الصيغ التى كان يمليها المسلمون ، بينما كان مسلك المسلمين : التأنى وضبط النفس واتقاء الإثارة ، وتجنب كل مايؤدى إلى الفشل ، طالما لا يضار الهدف من عهد الصلح ، وهو الوصول إلى مكة فى حج لمناسكها فى أمان ، فى وقت لم يأن الأوان بعد لفتحها بالقوة وإخلاء بيت الله الحرام من الشرك والمشركين . فسمت الآية مسلك المشركين عند كتابة العهد : بحمية الجاهلية وهو مسلك الحمق وعدم تحكيم المنطق ، بينما مسلك المسلمين : بالسكينة أى بالهدوء وبالتقوى أى تجنب الإثارة .

وثالثاً : خاصة الجبن القائم على تخيل باطل للحياة والموت . وهو أن الخروج إلى ميدان القتال يقرب أجل الإنسان إلى الموت ، بينما الاحتماء بعيداً عنه يحول دون ذلك . يقول الله تعالى : « ثم أنزل عليكم من بعد الغم (ضيق النفوس وقلقها بسبب ماحدث للمؤمنين فى غزوة أحد) أمنة (أى اطمئناناً) نعاساً يغشى طائفة منكم ، وطائفة قد أهمتهم أنفسهم (وهم المنافقون بين المؤمنين) يظنون بالله غير الحق .. ظن الجاهلية . يقولون : هل لنا من الأمر من شىء ؟ (أى ليس لنا فيما وقع سبب) قل : إن الأمر كله لله ، يخفون فى أنفسهم ما لا يبدون لك ، يقولون : لو كان لنا من الأمر شىء ما قتلنا ههنا (أى لو أخذ رأيهم لما نصحوا بالخروج إلى القتال فى : « غزوة أحد » وبالتالى ما قتل من قتل) قل: لو كنتم فى بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم (أى قل أيها الرسول — صلوات الله وسلامه عليه — وبلغهم ، وبلغ الناس جميعاً : أن قضاء الله لا يرد ، ومن كتب عليه الموت فسيلقاه حتما ، مهما احتاط وحافظ على حياته . فالخروج إلى ميدان القتال لا يقرب من أجل الموت ، وكذلك البقاء فى حماية الدار لا يبعد

شبحـه) »[1].. وخاصة الجبن هذه إنما تعود إلى الأنانية وحب النفس . وإذا سادت فى المجتمع فإنه يكون مجتمعاً قبلياً أو جاهلياً .

ورابعاً : تمثل الدعوة السافرة من جانب المرأة لإغراء الرجل بها . يقول الله تعالى : « يانساء النبى لستن كأحد من النساء ، إن اتقيتن فلاتخضعن بالقول فيطمع الذى فى قلبـه مرض وقلن قولا معروفاً . وقرن فى بيوتكن (أى اسكن فى منازلـكن واحتمين بها من أولئكم مرضى النفوس من الرجال ، خيرلـكن من أن تتعرضن لهم) ولاتبرجن تبرج الجاهلية الأولى (أىلاتبرزن مفاتنكن لتغرين بها الرجال . فإن ذلك سمة الجاهلية التى لاتعرف تهذيباً ولا سمواً فى الإنسـانية ، ولا ترفعاً عن دنايا الشهوة وانحطاطها) »[2].

وباتباع الهوى فى الحـكم بين الناس .. وبعدم الاحتكام إلى العقل والجنوح إلى الحق فى المعاملة .. وبالجبن القائم على التصور الباطل فى شأن الحياة والموت.. ويتفسخ المرأة فى عرض نفسها . . تحدد مظاهر : « الجاهلية » فى المجتمع . فأى مجتمع تسود فيه هـذه الخصائص هو مجتمع جاهلى — فى المستوى الإنسانى — ولو كان مجتمعاً متقدماً فى العلم والصناعة . وأى مجتمع آخر يرعى العدل . ويحكم أفراده العقل فى معاملة بعضهم لبعض ، ولا يتهيب أعضاؤه الموت فى سبيل الدفاع عن قيمهم العليا ، وتحافظ المرأة فيه على حيائها وكرامتها . . هو مجتمع حضارى فى الإنسانية ، ولو كان مجتمعاً زراعياً لم يدخل بعد فى عصر التصنيع .

● **السـفه :**

● ترد كلمة : «السفه» فى كثير من آيات القرآن الكريم وصفاً للمنحرفين فى الاعتقاد عن الصراط السوى . ففى قصة هود : يرميه زعماء قومه بالسفاهة ، فيما يحـكيه قوله تعالى : « قال الملأ الذين كفروا من قومه : إنا لنراك فى سفاهة ،

---

(١) آل عمران : ١٥٤ . (٢) الاحزاب : ٣٢ ، ٣٣ .

وإنا لنظنك من الكاذبين . قال يا قوم: ليس بى سفاهة ، ولكنى رسول من رب العالمين »[1] . . فقد رماه زعماء قومه بالسفاهة اعتقاداً منهم : أنه ضال ومنحرف فى دعوته الجديدة ، وهى دعوة التوحيد ، إذ هى دعوة تناقش تماماً ما عليه مجتمع من وثنية مادية وشرك . ولذا فى رده على الزعماء فى المجتمع : نفى السفاهة والضلال عنه ، وأعلن أن دعوته هى دعوة رب العالم كله ، وليست دعوة لصنم أو لجملة من الأصنام ، كما هو اعتقادهم .

ويعزز : أن السفه يأتى مرادفاً للضلال فى القرآن الكريم : ما تحكيه قصة نوح فى قول الله تعالى : « قال الملأ من قومه : إنا لنراك فى ضلال مبين . قال يا قوم : ليس بى ضلالة ، ولكنى رسول من رب العالمين »[2] . . فقد وضع الضلال هنا موضع السفه . والضلال هو الانحراف فى الاعتقاد .

وفى الحديث عن المنافقين فى إيمانهم — وهم فى حقيقة أمرهم كافرون — يحكى القرآن الكريم بعض خصائصهم فى قوله : « وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس (أى كأولئكم الذين آمنوا بالفعل بالرسول عليه الصلاة والسلام) : قالوا : أنؤمن كما آمن السفهاء (فاستنكروا أن يكون وضعهم فى الاعتقاد كوضع هؤلاء المؤمنين . إذ يرونهم فى ضلال وحيرة) ؟ ألا : إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون (ولذا جاء رد القرآن على استنكارهم بأنهم : هم — وليس المؤمنون — على سفه وضلال فى الاعتقاد ، بكفرهم وتشبثهم بوضعهم الذى هم فيه » .

● ويأتى السفه أيضاً وصفاً للمنحرفين فى تصرفاتهم المالية . وللحيلولة دون الاستمرار فى الانحراف فى إنفاق المال لمن يملكونه : يأمر الإسلام بوضع أموالهم تحت وصاية المسلمين . لأن الملكية الخاصة للمال لا تبرر فى نظرته : الانحراف فى إنفاقه . إذ هو حريص على أن تكون منفعته منفعة عامة ، كما هو حريص على

---

(١) الأعراف : ٦٦ ، ٦٧ . (٢) الأعراف : ٦٠ ، ٦١ .

المحافظة على الملكية الخاصة . جاء هذا فى قول الله تعالى : « ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التى جعل الله لكم قياماً »[1] .. فيطالب القرآن عدم تمكين المنحرفين فى إنفاق أموالهم : من مباشرة استثمار هذه الأموال والتصرف فيها . وتعلل الآية ذلك : بأنها أموال المسلمين كافة ، التى ارتبط بها تكوين وجودهم ومعيشتهم ، وإن كانت هى ملكاً لهؤلاء السفهاء : « أموالكم ، التى جعل الله لكم قياماً » ..

والانحراف فى الإنفاق الذى بسببه سمى المنحرف فى إنفاق ماله .. سفيهاً ، هو انحراف يشبه ماعليه الضال فى اعتقاده ، فى أثره السلبى على الأمة الإسلامية . ومعنى ذلك : إذا لوحظ فى وصف الضال فى الاعتقاد : بالسفه .. عداوته للمسلمين فى إيمانهم وتمسكهم بدين الله ، فيلاحظ كذلك فى المالك المسلم الذى يوصف بالسفه لانحرافه فى إنفاق ماله .. أثر تصرفه فى ماله : على إضعاف المسلمين فى إيمانهم ودينهم . ويستوى إذن : السفيه بكفره . والسفيه فى ماله .. فى الأثر السلبى على الأمة الإسلامية . والفرق بينهما عندئذ هو : أن السفيه بكفره عدو خارجى ، بينما السفيه فى ماله عدو داخلى ، وإن لم يكن على وعى ويقظة بعداوته الحقيقية لأمته ولدينه .

فالمسلم الذى ينفق من ماله لمعاونة عدو خارجى ، أو لمحاربة دين الله بنشر عقيدة ضارة به .. هو سفيه فى ماله ، مهما قل ماينفقه فى هذا السبيل ، أو فى ذاك . والسفيه إذن هو المنحرف فى إنفاق ماله ، بما يضر أمته فى قوتها ، أو فى دينها وإيمانها . ويكون عندئذ وصف تصرفه بالسفه ، قريباً من وصف الكافر بالسفه فى ضلاله وفى عداوته لدين الله والمؤمنين به . وإذا كان المبذر للمال هو المنفق إياه فى الفساد والعبث مهما قل ما ينفقه ، فالسفيه هو المتصرف فى ماله بما يؤذى أمته ويضر مالها ، من : دين وقيم عليا ، يترابط أفرادها على أساس منها ، مهما قل ما ينفقه كذلك .

(١) النساء : ٥ .

● **التبـذير :**

● يهتم القرآن الكريم بأداء المال لوظيفته الاجتماعية . وهى : أن ينفق فى سبيل المصلحة العامة ولخير الناس جميعاً . وإن كانت ملكيته ملكية خاصة . إذ الملكية الخاصة للمال لا تجعل منه — فى نظر الإسلام — مبرراً لإنفاقه فى الأغراض الخاصة وحدها . وقول الله تعالى : « والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق ، فما الذين فضلوا برادى رزقهم على ما ملكت أيمانهم فهم فيه سواء ، أفبنعمة الله يجحدون »[1] . . يجعل من صاحب الملكية الخاصة الذى يرى : أن منفعتها قاصرة عليه وحده ، وأنه إذا أعطى غيره منها فإنه يعطيه مما يملك ، ومما هو له . . يجعله جاحداً وكافراً بنعمة الله : « أفبنعمة الله يجحدون » . وإنما الوضع الذى يرضى الله فى شأن المال ، هو : كما تذكره الآية هنا : وهو أن الذى يعطى من مال يملكه ، غيره ممن لا يملك شيئاً . . إنما يعطيه حقه فى واقع الأمر الذى له فى مال الله عنده ، المستخلف فيه من الواضعين يدهم عليه : « فما الذين فضلوا برادى رزقهم على ما ملكت أيمانهم (أى فما الذين فضلهم الله بملكية المال إن هم أعطوا أتباعهم الذين لا يملكون شيئاً وأنفقوا عليهم . . لا يعطونهم مما لهم هم فى واقع الأمر ، ولا ينفقون عليهم من ملك لهم . إنما يعطونهم من مال الله فى حقيقته ، وقد استخلفوا فيه فقط . ويدهم على المال عندئذ هى يد الوكيل أو المفوض الذى يجب أن يكون تصرفه طبقاً لما يأمر به موكله ومفوضه) » .

● ومن أجل نظرة الإسلام هذه إلى المال : فى ملكيته ، ووظيفته — وهى أن ملكيته ملكية خاصة ، بينما منفعته منفعة عامة — يرى الإسلام أن الخروج فى إنفاق المال عن المنفعة العامة ، ولخير الأمة ، ولمعاونة أصحاب الحاجة فيها : أمر يجب أن يوضع له حد ، بفرض وصاية على صاحب المال الذى انحرف فى

---

(١) النحـل : ٧١ .

توجيه الإنفاق ، لضمان بقائه فى طريق المصلحة العامة وحدها . ومن جوانب هذه المصلحة : رعاية صاحب المال نفسه فيما كان تحت يده من مال : فى معيشته ، وسكناه .

وقد ورد فى القرآن الكريم فى التعبير عن الانحراف فى إنفاق المالك فيما هو تحت يده من مال : إسم التبذير مرة ، وإسم السفه مرة أخرى . وسمى المنحرف فى ماله : بالمبذر ، أو بالسفيه .

• ففى شأن التبذير جاء قوله تعالى : « وآت ذا القربى حقه ، والمسكين ، وابن السبيل ، ولا تبذر تبذيراً . إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين ، وكان الشيطان لربه كفوراً »[1] . . فأمر بأمر ، ونهى عن آخر ، فأمر بإعطاء القريب وبالأخص الوالدين ، والمسكين — وهو الذى لا يتوفر له من سعيه سد حاجته فى المأكل والمشرب والمسكن والملبس — وابن السبيل وهو الذى تطرأ عليه الحاجة أثناء سفره . . أمر بإعطاء كل من هذه الأنواع الثلاثة ما عبر عنه القرآن بالحق . وصاحب القرابة إذن إن أخذ معاونة من موسر قريب له فهو يأخذ حقه منه . والمسكين إن أخذ ما يسد حاجته من الموسرين فهو يأخذ حقه منهم . وابن السبيل إن أخذ ما يعينه على إتمام سفره إلى غايته فهو يأخذ حقه من القادر على الإعطاء .

أما ما ينهى هنا عنه فهو التبذير : « ولا تبذر تبذيراً » . ويفهم منه الآن : أنه الإنفاق فى غير هذه الأوجه وما يشبهها مما من شأنه أن يعود بمضرة على المصلحة العامة . وبما أن الآية الثانية هنا بعد النهى ألحقت المبذرين بالشياطين ، وجعلت الشيطان كافراً بالله ، فالمبذرون إذن هم من أنفقوا من أموالهم : فى المفاسد ، والمظالم ، قل أو كثر ما أنفقوه . لأن عمل الشيطان يقاس بنوعه ، وليس بكميته . وكذلك من يحملون على الشيطان ممن ينفقون الأموال فى المفاسد يقاس عملهم

---

(١) الإسراء : ٢٦ ، ٢٧ .

بنوعه ، وليس بمقدار ما ينفقون . ولذا يحكى الزمخشرى فى تفسيره الكشاف ، عن مجاهد : أن المنفق فى ماله ، لو أنفق مداً فى باطل كان تبذيراً . والمد هو أدنى وحدة فى المكيال .

فإلحاق المبذر بالشيطان — فى وصف الشرية — يحدد تصرفه فى ماله بما يعود بمضرة وفساد على المصلحة العامة . وهذا مايعطيه كذلك: التقابل بين الأوجه التى أمر القرآن بالإنفاق فيها هنا ، وبين ماعداها من المقابل لها مما عد تبذيراً .

وليس التبذير إذن هو الإنفاق الكثير . لأنه قد يكون حينئذ فى أوجه الخير وفى المصلحة العامة . وليس بالتالى أيضاً : مقابلا للبخل والشح والإمساك . إنما المقابل لذلك هو : البسط كما جاء فى آية تالية : « ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط ، فتقعد ملوماً محسوراً »[1] .

والمبذر إذن هو المفسد ، والعابث ، والماجن بماله ، ولو بقدر ضئيل منه .

● **الاسراف :**

● تأتى كلمة الإسراف ، فى القرآن الكريم — فى كثير من دلالاتها — بمعنى : الخروج عن حد الاعتدال فى معارضة الإيمان بالله . والمسرف بهذا المعنى الكثير الشائع فيه ، هو : من يتشدد فى معارضته الإيمان ، ويبالغ فى الكفر بالله .

نقرأ قول الله تعالى : « فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه ، على خوف من فرعون وملئهم : أن يفتنهم (أى يصيبهم بأذى) وإن فرعون لعال فى الأرض (أى لمتكبر ومتعاظم ومتجبر فى حكمه وسلطانه) وإنه لمن المسرفين »[2] .. والمعنى: أن السبب فى أن الذين آمنوا بموسى من بنى إسرائيل الذين هاجروا إلى مصر واستوطنوها ، كانوا قلة : هو الخشية من طغيان فرعون وعصابته فى الحكم .

---

(١) الاسراء: ٢٩ . (٢) يونس : ٨٣ .

وقد كان طغيانه يعود إلى أنه من المسرفين ، أى المبالغين فى تحدى الله ورسالته .

.. ونقرأ أيضاً قول الله تعالى فيما يحكيه عن دعوة صالح إلى ثمود فيما تقصه هاتان الآيتان : « فاتقوا الله ولا تطيعوا أمر المسرفين . الذين يفسدون فى الأرض ولا يصلحون »[1] . ولاشك أن الذى يفسد فى الأرض ولا يصلح فيها : هو متحد لرسالة الله للإنسان على هذه الأرض . والمتحدى لدين الله ، مبالغ فى كفره بالله .

. . كما نقرأ ماجاء فى قصة الرجل المؤمن من آل فرعون الذى كان يكتم إيمانه فى قول المولى جل شأنه : « وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه : أتقتلون رجلا أن يقول : ربى الله ، وقد جاءكم بالبينات من ربكم (يشير القرآن بذلك إلى تهديد فرعون لموسى ، فيما يحكيه قبل ذلك ، بقوله : « وقال فرعون : ذرونى أقتل موسى ، وليدع ربه ، إنى أخاف أن يبدل دينكم ، أو أن يظهر فى الأرض الفساد »[2] . وإن يك كاذباً فعليه كذبه ، وإن يك صادقاً يصبكم بعض الذى يعدكم ، إن الله لايهدى من هو مسرف كذاب »[3] . فالحكم هنا بأن الله لا يهدى من هو مسرف كذاب : يتناول فرعون أولا وبالذات ، ثم من هو على شاكلته وبين ملئه . وفرعون وملؤه كانوا من أشد المعارضين لرسالة موسى وللإيمان بالله .

. . وهكذا : فيما يحكيه الله عن بنى إسرائيل فى خضوعهم للاتجاه المادى فى حياتهم ، مما كان يحول بينهم وبين الإيمان بالله ، رغم تعدد الرسل والأنبياء إليهم : « ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات ، ثم إن كثيراً منهم بعد ذلك فى الأرض لمسرفون (أى ثم إنهم رغم كثرة الرسل إليهم فإن عدداً غير قليل منهم مبالغ فى تحديه للإيمان بالله : فى السلوك والتصرفات) »[4] .

---

(١) الشعراء : ١٥١ ، ١٥٢ .
(٢) غافر : ٢٦ .
(٣) غافر : ٢٨ .
(٤) المائدة : ٣٢ .

. . وعلى هذا النحو ما جاء فى قصة يوسف : « ولقد جاءكم يوسف من قبل (أى جاء بنى إسرائيل من قبل موسى) بالبينات ، فما زلتم فى شك مما جاءكم به ، حتى إذا هلك (أى حتى إذا مات يوسف) قلتم : لن يبعث الله من بعده رسولا ، كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب »[1] . والمسرف المرتاب هنا : هم أوائكم الذين لم يؤمنوا برسالة يوسف من بنى إسرائيل ، وما زالوا فى بعد عن رسالته إلى أن توفى .

● وإذا كان الشائع فى الاستعمال القرآنى : أن الإسراف هو الخروج عن حد الاعتدال فى الكفر بالله .. أى هو التحدى والاستمرار فى المعارضة لدين الله فإنه قد يأتى — وهو الأقل القليل — بمعنى : عدم الاعتدال فى الإنفاق . وعندئذ توجد قرينة دالة على هذا المعنى فى كلام الله عليه . كما فى قوله تعالى : « والذين إذا أنفقوا (ويقصد بهم عباد الرحمن) لم يسرفوا ولم يقتروا ، وكان بين ذلك قواماً » .. فالإسراف هنا بمعنى عدم الاعتدال فى الإنفاق : وقرينة ذلك : التعبير بأنفقوا ، ولم يقتروا (أى يمسكوا ويبخلوا) وقواماً (إذ القوام هو العدل والتوازن) وكما فى قوله : « يا بنى آدم : خذوا زينتكم عند كل مسجد ، وكلوا واشربوا ، ولا تسرفوا ، إنه لا يحب المسرفين » .. فالإسراف هنا هو عدم الاعتدال فى الزينة ، وفى الأكل والشرب ، بقرينة التعبير بهذه الكلمات الثلاث .

.. وعلى هذا النحو يفسر الإسراف فى قوله تعالى فى شأن اليتيم : « وابتلوا اليتامى (أى اختبروا القصر . والخطاب للأوصياء) حتى إذا بلغوا النكاح (أى بلغوا سن الرشد) فإن آنستم منهم رشداً فادفعوا إليهم أموالهم (أى التى هى تحت وصايتكم) ولا تأكلوها إسرافاً ، وبداراً ، أن يكبروا (أى ولا تبددوا الأموال التى تحت أيديكم لليتامى : بالتبذير وعدم الاعتدال فى الإنفاق منها على

---

(١) غافر : ٣٤ .

أنفسكم مستغلين صغر سنهم) ومن كان غنياً فليستعفف ، ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف (أى والمبدأ الذى ينبغى أن يتبع فى الإنفاق منها مقابل رعاية استثمارها هو : أن الغنى من الأوصياء يترفع عن الأخذ منها ، وأن الفقير يأخذ حاجته فقط كشأن الأموال العامة واستغلالها) فإذا دفعتم إليهم أموالهم (أى بعد بلوغهم الرشد) فأشهدوا عليهم وكفى بالله حسيباً »[1] .. فالجو فى هذه الآية هو جو مال. وهو من أجل ذلك قرينة على أن الإسراف هنا : بمعنى عدم الاعتدال فى إنفاق المال .

والآن نتيجة استعمال القرآن لمفهوم الإسراف وما اشتق منه : أن الإسراف فى الكثير الغالب من استعمالاته بمعنى : التحدى والمعارضة فى الكفر بالله وعدم الإيمان به .. وفى الأقل القليل بين هذه الاستعمالات : بمعنى : عدم الاعتدال فى الإنفاق . وهو بذلك يساوى : التبذير .

---

(١) النساء : ٦ .

جـ ـ فى الدائرة الاسرية :

- العفـة ٢٥٧
- قوامة الرجل ٢٥٩
- الاصلاح بين الزوجين ٢٦٢
- زينـة المراة ٢٦٤
- تبرج المراة ٢٦٧
- الطـلاق ٢٧٦
- الافتداء أو الخلع ٢٨٠
- الظهـار ٢٨٢
- الايـلاء ٢٨٤
- اليتـيم ٢٨٦
- المسكين ٢٨٨

obeikandl.com

obeikandl.com

● **الزواج - والنكاح :**

● يأتى تعبير القرآن « بالزواج » توضيحاً لنوعية الذكورة والأنوثة فى خلق الإنسان ، والثنائية بينهما ، إمتناناً على الإنسان بهذا التنويع . لما فيه من جو الاطمئنان ، ولما يحمل من بث المودة والرحمة المتبادلة . يقول الله تعالى : « ومن آياته : أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا (أى من الذكورة والأنوثة) لتسكنوا إليها (أى لكى يطمئن بعضكم إلى بعض ، ويهدأ كل نوع بسبب وجود النوع الآخر معه فى الحياة) وجعل بينكم مودة ورحمة (أى وزيادة على الإطمئنان والهدوء : فإن هذا التنويع بين الذكر والأنثى فى خلق الإنسان يبعث على المودة المتبادلة ، وعلى الرحمة المتبادلة) إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون (أى إن فى خلق الإنسان على هذا النحو من ثنائية وازدواج لتحقيق الأهداف المرتبطة بهذا الازدواج . . لأمارات واضحة على وحدانية الله فى الوجود كله ، كمعبود يستحق وحده — دون شريك له — العبادة : من الإنس ، والجن على السواء . ولكنها أمارات واضحة فى دلالتها لأولئكم الذين يحكمون عقولهم ومنطقهم الإنسانى ، والذين يمارسون التفكير فى كل ما يرونه أو يواجهونه فى الحياة) »[1].

● ويأتى تعبير القرآن أيضاً بالزوج : فى الأسرة . . بعد أن ورد فى خلق الإنسان على العموم . يقول تعالى : « وإن أردتم (أيها الأزواج) استبدال زوج مكان زوج (أى إن أردتم أن تأتوا بزوجة جديدة موضع زوجة أخرى قائمة وموجودة بالفعل) وآتيتم إحداهن قنطاراً (أى وأعطيتم مهراً كبيراً له شأن لتلك الزوجة التى يراد استبدالها) فلا تأخذوا منه شيئاً أى مما أعطيتموه) ، أتأخذونه بهتاناً وإثماً مبيناً (لأنكم إن أخذتم أدنى شىء منه ، فقد أخذتم فى واقع الأمر ماليس لكم . . أخذتم ما هو زور وباطل ، وارتكبتم بذلك : معصية

---

(١) الروم : ٢١ .

واضحة فى مخالفتها لما أمر به الله فى حدوده التى حددها للأسرة — ومن تلك الحدود : أن المهر للزوجة مهما بلغ)[١] .

فالزوج — كما ورد فى هاتين الآيتين — هو الطرف المقابل لطرف آخر يشترك معه فى خصائص الإنسان ، أو يشترك معه فى معاشرة أسرية .. وفى بناء وحدة إنسانية ، هى وحدة الأسرة .

• وللتعبير عن قيام وحدة الأسرة يؤثر القرآن ذكره بلفظ النكاح ، دون لفظ الزواج . والحديث إذ يكون بلفظ الزواج ، والزوجية : فى القرآن إنما يأتى بعد عقد النكاح وإتمامه بالفعل . يقول الله تعالى : « وإن خفتم : أن لا تقسطوا فى اليتامى (تقصد الآية باليتامى هنا : أولاد الذين قتلوا من المسلمين فى ذلك الوقت فى غزوة : أحد . وقد طلب إلى المسلمين إذ ذاك : أن يؤثروهم بالزواج — تضميداً لجراح أسرهم — على شرط أن يكونوا واثقين من حماية مصالحهم وأموالهم بالعدل . والمعنى : وإن خفتم أن لا تعدلوا حين طلبكم إتمام عقد النكاح مع اليتامى فانصرفوا عنهم إلى غيرهم . وعندئذ :) فانكحوا ما طاب لكم من النساء : مثنى ، وثلاث ، ورباع ، فإن خفتم أن لا تعدلوا فواحدة ، أو ما ملكت أيمانكم ، ذلك أدنى أن لا تعولوا (أى أن الاقتصار على واحدة — فى حال عدم ثقتكم بمباشرة العدل بين أكثر من واحدة — هو أقرب السبل للحماية من الوقوع فى الإنحراف وعمل ما ليس بعدل) »[٢] . والنكاح إذا كان تعبيراً عن قيام الزوجية .. فالزواج هو التعبير عن تواجد الزوجين فى حياة مشتركة بينهما . والزوج هو التعبير عن أحد طرفى هذه الحياة : ذكراً ، أم أنثى على السواء . ويبقى لكل طرف : هذا الوصف — بعد الطلاق أيضاً — حينما يوجه إليه القرآن النداء بأداء ما يجب من التزام عليه نحو الطرف الآخر ، تسوية للوضع الذى

---

(١) النساء : ٢٠ .　　(٢) النساء : ٣ .

كان قائماً بينهما معاً . كما جاء فى قوله تعالى : «والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا .. يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشراً »[1] .. فسمى المتوفى عنها زوجها .. زوجاً ، بعد أن انتهت الحياة الزوجية بينهما بوفاة الزوج .

● **العفـــة :**

● تعرض آيات القرآن الكريم : للعفة . . بالتعبير عنهـا بالاستعفاف . وتعرض لها فى مجالين : مجال المال .. ومجال علاقات الرجال بالنساء .. أو النساء بالرجال .

فى المجـال الأول ، يقول الله تعالى : « وابتلوا اليتامى (أى اختبروا القصر من الأولاد) حتى إذا بلغوا النكاح (أى حتى إذا وصلوا إلى سن البلوغ الجنسى) فإن آنستم منهم رشداً (أى فإن أحسستم منهم عندئذ رشداً وحكمة فى تصرفاتهم) فادفعوا إليهم أموالهم (أى فسلموا إليهم أموالهم التى هى تحت أيديكم للمحافظة عليها ولإنمائها) ولا تأكلوها : إسرافاً ، وبدارا أن يكبروا (أى ولا تستولوا على هذه الأموال وهى تحت أيديكم : مرة بسبب الإسراف والتبذير فى الإنفاق منهـا . . ومرة أخرى بسبب الإسراع فى أخذها قبل تسليمها إياهم فى الوقت المعلوم ، وهو وقت الرشد والصلاحية لمباشرة إنماء المال والمحافظة عليه) ومن كان غنياً فليستعفف (أى ومن كان غير ذى حاجة إلى المـال والسعى إليه فليكن ذا عفة . . أى ليكن ممسكا عن الوقوع فى أكل أموال اليتـامى ، بأية وسيلة) »[2] .. فالاستعفاف — أو العفة — أتى هنا بمعنى الإمساك عن الوقوع فى خطأ .. فى حرام .. وفى جريمة . وهى جريمة أكل مال الضعيف ، والاعتداء على حقه فى وجوب المحافظة على ماله من مال .

---

(١) البقـرة : ٢٣٤ .　　(٢) النسـاء : ٦ .

وفى مجال علاقة الرجال بالنساء يقول جل شأنه مخاطباً الرجال : « وليستعفف الذين لا يجدون نكاحاً (أى ليمسك ذلكم الرجال الذين لا تتوافر لديهم إمكانيات الزواج .. عن الوقوع فى جريمة الاتصال الجنسى ، وهى جريمة الزنا) حتى يغنيهم الله من فضله (أى .. إلى أن يمكنهم الله من الزواج بفضل ماينعم عليهم من إمكانيات تساعدهم عليه) »[1] .. ويقول أيضاً مخاطباً النساء : « والقواعد من النساء اللاتى لا يرجون نكاحاً (أى والعجائز من النساء اللاتى لا يتوقعن زواجاً لكبر سنهن وفوات الوقت عليهن) فليس عليهن جناح أن يضعن ثيابهن ، غير متبرجات بزينة (أى لا يلمن : إذا ما نحين ثيابهن الخارجية جانباً .. غير خليعات ، وغير عارضات لزينة أبدانهن) وأن يستعففن خير لهن (أى والأحسن لهن : أن تكن محتشمات .. فتمسكن عما يثير الفضول فى النظر إليهن ، وتكن بذلك سبباً فى ارتكاب محرم هو النظر إليهن فى إثارة) »[2] .

• فالعفة — أو الاستعفاف ، كما جاء به آيات القرآن — هى إمساك عن الوقوع فى خطأ .. هو تجنب ارتكاب جريمة اجتماعية : فجريمة أكل مال اليتيم — وهو الضعيف — جريمة اجتماعية .. وجريمة الزنا والتحريض عليه جريمة اجتماعية . كلتاهما تتعلق بحق المجتمع وحرمة الاعتداء عليه . والاعتداء على مال اليتيم — وهو الضعيف — ليس فى نظر الإسلام جريمة اجتماعية ، لأنه اعتداء على ضعيف فيه . بل لأن مال اليتيم تتعلق به منفعة عامة لآخرين فيه ، ممن حرموا ملكية المال ، هو : حق الزكاة .. والإحسان فيه . وجريمة الزنا يتعلق بها حق المجتمع ، لأنها تتصل بالأنساب والمحافظة عليها . والمحافظة على الأنساب ضرورة اجتماعية لوقاية المجتمع ذاته من الطفولة المشردة ، وعبث أصحابها وميلهم إلى الانتقام من مجتمعهم الذين يعيشون فيه ، كجزاء على وضعهم الذليل فيه .

---

(١) النور : ٣٣ .

(٢) النور : ٦٠ .

• وهكذا : العفة — أو الاستعفاف — فضيلة من الفضائل الرئيسية . لأنها تتطلب فى أدائها أولا .. مجهوداً نفسياً .. هو مجهود حماية النفس مما يغريها ويشدها إليه شداً عنيفاً : من شهوة المال .. وشهوة الاتصال الجنسى ، ثم ثانياً لأنها تحقق للمجتمع مصلحة عامة ، وهى الوقاية من الأضرار الاجتماعية .

• **قوامة الرجـل :**

• جاء فى قول الله تعالى: « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله ، شهداء بالقسط »[1] .. تعبير الآية بكلمة : « قوامين » فى أمر المؤمنين برعاية دين الله والمحافظة عليه . إذ المعنى : يا أيها الذين آمنوا . . كونوا رعاة لدين الله ، وحفظة عليه ، كما تكونوا ذوى عدالة فى شهادتكم .

ومادة الحروف التى تتكون منها كلمة : « قوامين » .. تتكون منها كلمة أخرى ، ولكن بعد تحويل حرف الواو ، إلى ياء . كما جاء فى قول الله تعالى : « جعل الله الكعبة البيت الحرام (قياماً) للناس » .. أى ملجأ وحصناً آمناً للناس . وكما ذكر أيضاً فى قول الله جل شأنه : « ولاتؤتوا السفهاء أموالكم التى جعل الله لكم قياماً » . . أى جعل لكم حق رعايتها ، والمحافظة عليها ، والاستناد إليها .

• فكلمة : قوام ، أو: قيام ، تنطوى على معنى السند ، والحفظ ، والوقاية ، والرعاية . وعلى هذا الأساس تفسر قوامة الرجل على المرأة ، فى قوله تعالى : « الرجال قوامون على النساء »[2] . ومعنى هـذا التركيب إذن : الرجال : رعاة ، وحفظة ، وسند للنساء .

وتستطرد الآية — بعد هذه الجملة — فتقول : « .. بما فضل الله بعضهم على بعض » .. أى أن كون الرجل سند المرأة فى العلاقة الزوجية يعود إلى ماميز

---

(١) المائدة : ٨ (٢) النساء : ٣٤ .

الله به الرجال والنساء بعضهم على بعض . وذلك : فى تكوين الجسم ، والإعداد لمواجهة مشقة الحياة ، وتحديات مشاكلها التى قد تدفع إلى القتال فى الحروب . ولاشك أن الرجل أكثر صلاحية وإعداداً من الطبيعة — سواء بتكوين بدنه ، أو بتمرسه على السعى فى معترك الحياة من أجل الرزق — لمواجهة المشاكل الخارجية ، والتى قد يكون من بينها : الاعتداء على المرأة فى أية صورة من صور الاعتداء عليها .

... ثم تستمر الآية فى الاستطراد ، فتقول : « ... وبما أنفقوا من أموالهم » .. أى وأيضاً : كون الرجل وكل إليه أمر الرعاية للمرأة فى العلاقة الزوجية لا يرجع فقط إلى اختلاف تكوين الطبيعة البشرية لكل من الرجل والمرأة ، ولكن يعود مع ذلك إلى عامل يترتب على اختلاف التكوين : لطبيعة كل منهما . وهو عامل الإنفاق والتكفل بالحياة الزوجية . وهو عامل : طلب إلى الرجل وحده أن يباشره ، دون المرأة . لأنه أقدر عليه ، وليس له من طبيعته ما قد يحول : لفترة تطول وتقصر ، دون القيام به . كما هو شأن المرأة فى فترات : الحيض ، والحمل ، والرضاعة ، والحضانة .

وهنا يكون مجمل هذا الجزء من الآية ، وهو قول الله تعالى : « الرجال قوامون على النساء ، بما فضل الله بعضهم على بعض ، وبما أنفقوا من أموالهم » .. أن الرجل فى الحياة الزوجية المشتركة بينه وبين زوجته مكلف من قبل الله جل شأنه برعاية الزوجة وبمسئولية الحياة المشتركة بينهما . ومسئوليته هذه تتفق مع خصيصته التى هى له بحكم تكوينه . وهى خصيصة لا تشاركه المرأة فيها . إذ أنها خصيصة بناء جسمه : فهو لا يحمل ولا يرضع ما يأتى من ولد : منه ومن زوجته . وهو كذلك — لعدم استطاعته الحمل والإرضاع — أقدر من زوجته على مواجهة

المشقات ، إن طلب إليه السعى فى سبيل الرزق للحياة المشتركة مع زوجه .

فتكليف الرجل بمسئولية الحياة الزوجية ، وبرعاية الزوجة فيها ، وبحمايتها من الاعتداء عليها ، أمر طبيعى ، من وجهة نظر الإسلام — وليس فيه — لذلك ، عنت عليه ، ولا على الزوجة أيضاً . إذ لو كلفت الزوجة وحدها بهذه الرعاية للحياة المشتركة بينها وبين زوجها ، لشق عليها — على الأقل فى بعض فترات حياتها : فى فترات الحيض ، والحمل ، والرضاعة ، والحضانة — أن تباشر هذه المهمة . ولو كلف الإثنان معاً بها لاختلفا فيما بينهما اختلافا مستمراً : فى تحديد النصيب الذى يقوم به كل منهما ، أو فى تقديره . وعندئذ تخرج الحياة الزوجية عن أن تكون : حياة سكنى واطمئنان ، ولانتقلت المرأة حينئذ من دور الزوجة إلى دور الشريكة التعسة ، والحاقدة على مايصيبها من : ضعف ومن هموم ، فى سبيل تحديها لزوجها بشأن قيامها بالنصيب المطلوب منها .

إن الزوج إذا لم يقم بهذا الدور الطبيعى ، وهو دور الرعاية للزوجة ومسئولية الحياة الزوجية : أى دور سيكون له فى حياته سوى التبطل ، والتراخى ، على حساب الضعفاء وتعاسة الزوجات ؟

● وبهذا الوضع الطبيعى لقوامة الرجل فى الحياة الزوجية ، لا تحتمل هذه القوامة : معنى الاستعلاء والترفع ، ولا معنى السيادة والتكبر . إن الرجل بهذه القوامة يؤدى دوراً طبيعياً ، كما تؤدى الزوجة دورها الطبيعى فى الحمل والولادة ، والإرضاع ، والحضانة سواء بسواء ، فى غير استعلاء وترفع ، أو فى غير سيادة وتكبر .

والمنحرف من الأزواج هو الذى يتخذ من مسئوليته عن الحياة الزوجية سبيلا إلى الاستعلاء ، ومركزاً لإهانة الزوجة . والمنحرفة من الزوجات هى التى تحول دون وضعها ، ودورها الطبيعى فى الحياة الزوجية ، فتمتنع عن إنجاب الأولاد ،

أو عن إرضاعهم ، أو عن حضانتهم . إنها إن فعلت ذلك تسيء إلى طبيعتها كأنثى، قبل أن تسيء إلى علاقتها بزوجها ، وبأسرتها ومستقبل الأمة .

والخير — إذن كل الخير — فى أن يحافظ كل من الرجل والمرأة فى الحياة الزوجية على أداء الدور الخاص بكل منهما . لأنه دور طبيعى وفيه تحقيق هدف الحياة الزوجية ، وهو مايعبر عنه قول الله تعالى : « ومن آياته : أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها » . وقوله : « والله جعل لكم من أنفسكم أزواجاً ، وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة » .. فجعل هدف الزوجية : الاستقرار ، وراحة النفس ، والمعاونة على دفع مشقة الحياة ، ثم النسل فى استمرار الإنسانية . ودوام رسالتها .

• **الإصـــلاح :**

• إذا تجاوز الشأن .. الفرد .. إلى غيره فى علاقته معه ، فمن المتوقع أن يجدّ خلاف بينهما . وربما إلى درجة الخصومة .. وربما كذلك إلى درجة المقاتلة . وعندئذ للإبقاء على علاقة المودة ، ثم على علاقة الاستمرار فى الحياة المشتركة .. كان : « الإصلاح » بين المتخاصمين — أو المتقاتلين — ضرورة اجتماعية . وبالأخص إذا كانت العلاقة الثنائية هى علاقة بين الزوجين فى الأسرة ، أو بين طائفتين — أو مجموعتين — فى الأمة الواحدة .

وكتاب الله جاء ليوصى بما يبقى للإنسان خصائصه الإنسانية فى سلوكه ، ويدفع عنه الانحراف فيما يتميز به عن غيره . ومن أهم خصائص الإنسان : ميله الفطرى إلى الاجتماع : إن فى بناء الأسرة ، أو فى كيان الأمة . ولذا جاءت وصايا القرآن بالإصلاح فى شأن الأسرة إذا أضحى الخلاف بين الزوجين يهدد بالقطيعة النهائية . فما أوصى به : قوله تعالى : « وإن خفتم شقاق بينهما (أى إن خفتم بين الزوجين . والخطاب موجه إلى المؤمنين ، ممثلين فى أولياء الأمر) فابعثوا حكما

من أهله وحكما من أهلها ، إن يريدا إصلاحاً يوفق الله بينهما ، إن الله كان عليما خبيرا »[1].. فالحكم المشترك من أهل الزوج وأهل الزوجة ، هو المسعى الحميد لإعادة العلاقة بين الزوجين إلى وضعها من : المودة ، والرحمة ، والسكى. وتوفيق الله فى نجاح إصلاح الحكمين بين الزوجين : كفيل بالرغبة الصادقة بين جميع الأطراف المعنية ، وهى : الحكمان ، والزوجان معاً .

وكذلك يعطى القرآن الأولوية : لجانب الزوج ، عندما يراجع زوجته فى طلاق رجعى — وهو الطلاق مرة واحدة ، لم تنته عدته بعد — ويستهدف مصلحة الزوجة فى ذلك وعدم الإضرار بها : « والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء ، ولايحل لهن أن يكتمن ماخلق الله فى أرحامهن ، إن كن يؤمن بالله واليوم الآخر ، وبعولتهن أحق بردهن فى ذلك (أى وأزواجهن أولى بردهن وإرجاعهن فى تلك المدة . ومعنى أن الأزواج أولى بذلك : أنه تستجاب رغبتهم ويؤخذ بها فى العلاقة بين الزوجين) إن أرادوا إصلاحاً (ولكن هذه الأولوية للأزواج مرهونة بالرغبة الصادقة لديهم : فى الإصلاح ، وعدم إلحاق الضرر بالزوجات.) »[2].

. . والإصلاح المطلوب فى الأسرة — كما يعبر عنه القرآن هنا — هو تجنيبها الضرر بسبب الفرقة : سواء باشر الزوج هذا الإصلاح بمفرده عند رد زوجته إليه فى الطلاق غير البائن .. أو باشره الحكم المشترك باتفاق أهل الطرفين . وليس للإصلاح وضع فى العلاقة الزوجية ، إذا لم يكن هناك خلاف يهدد بالفرقة والانفصال .

● ويوصى كتاب الله أيضاً : بالإصلاح بين جماعات الأمة وطوائفها إذا هددت الفرقة بينهما بالقتال وخروج بعضها على بعض . والإصلاح منا محاولة كذلك لتجنب الأمة خطر : الانقسام ، والحرب الأهلية ، والصراع الطائفى .

---

(١) النساء : ٣٥ .

(٢) البقرة : ٢٢٨ .

والمطالب بمباشرة الإصلاح عندئذ : هو الأمة كلها ، وفى مقدمة صفوفها : أولياء الأمر فيها . يقول الله تعالى : « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا (أى بالفعل ، أو هدد وضعهم القائم بالقتال : كشح الأغنياء وإمساكهم عن الإنفاق ، مع ازدياد حال الفقر والحرمان للمحرومين) فأصلحوا بينهما ، فإن بغت إحداها على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله ، فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا ، إن الله يحب المقسطين »[1] . والتهديد بالحرب الأهلية ، والانقسام الطائفى : لايكون سببه فقط : الاعتداء على سلطة الحكم . بل قد يكون فى مقدمة أسبابه : ثورة أصحاب الحاجة والضعفاء فى الأمة . بسبب عدم وفاء الأغنياء والموسرين بحقهم فى مال الله الذى استخلفوا عليه . والإصلاح بالعدل بين طوائف الأمة عندئذ : يكون بتوصيل هذا الحق إليهم ، وإعادة النفوس إلى صفائها ، والروابط إلى تماسكها .

ومفهوم : « الإصلاح » — فى القرآن الكريم — يرتبط إذن بأمرين : الأمر الأول : خشية وقوع الضرر بسبب الفرقة : إن فى الأسرة أو فى الأمة . والأمر الثانى : محاولة إزالة هذا الضرر ، ورد الأمر فى العلاقات إلى الوضع المرجو منها .

زينة المرأة :

● يقول الله تعالى : « وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن (أى يقصرن أبصارهن على مايحل لهن رؤيته من الرجال والنساء . وهو ما فوق السرة .. وتحت الركبة ، كما يقول الفقهاء) . . ويحفظن فروجهن (أى يسترنها) . ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها »[2] .. ويذكر بعض المفسرين — كصاحب الكشاف مثلا — أن : « زينة » المرأة ما تتزين به . وما تتزين به : إما ظاهر يجوز للمرأة

---

(١) الحجرات : ٢٩ .　　(٢) النور : ٣١ .

إبداؤه : كالحلى ، والكحل ، والخضاب . وإما خفى لا يجوز لها ابداؤه كالسوار ، والخلخال ، والقلادة ، والقرط . والمقصود — كما يقول الكشاف بإبداء الزينة الظاهرة هو إبداء مكانها من الجسم ، وبعدم إبداء الزينة الخفية هو عدم إبداء مكانها من الجسم أيضاً . فمكان السوار من معصم اليد ، ومكان الخلخال من الرجل ، ومكان القلادة من العنق ، ومكان القرط من الأذن . . لا يجوز للمرأة أن تظهره . والنهى عندئذ عن عدم إظهار زينة المرأة هو نهى بالأولى عن عدم إظهار مكانها .

● ولكن إذا استرسلنا فى قراءة بقية الآية عندما يقول الله جل شأنه : « ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن (أى لأزواجهن) . . إلى آخر الأنواع التى استثنيت فى الآية : من المحارم ومن عداهم ، ربما نفهم : أن « زينة » المرأة ليست هى الأماكن من البدن وحدها التى تزين ، زينة ظاهرة أو خفية . وإنما كان بدن المرأة يعتبره الإسلام زينة لها . . أى يعتبره مصدر فتنة وإغراء الرجل . ثم من البدن ما هو عورة .. ومنه ما ليس بعورة . فإذا أوجب على المرأة أن تستر زينتها بالنسبة للأجانب منها ، فمعنى ذلك: أنه يجب عليها أن تستر بدنها إلا ما تدعو إليه الضرورة ، مما يعينها على أداء وظيفتها فى الحركة ، والأخذ ، والعطاء ، وأداء واجبها فى الشهادة ، وإتمام العقد ، كعقد الزواج مثلا . وإذا أباح الإسلام لها أن تبدى زينتها لزوجها ولمحارمها فمعنى ذلك : أن تظهر من بدنها ما لا يقع فى دائرة العورة منها لزوجها ، ولمحارمها ، وغيرهم ممن نصت عليهم الآية . أما عورتها فهى لها ، ولزوجها وحدها .

ويرجح مفهوم الزينة للمرأة على هذا النحو : ما جاء فى آية[1] أخرى فى سورة النور أيضاً فى قوله تعالى : «والقواعد من النساء (والمراد بقواعد النساء : العجائز

(١) النور : ٦٠ .

اللائى قعدن عن الحيض والولد لكبرهن فى السن) اللاتى لا يرجون نكاحاً (أى أولئكن اللاتى لا يطمعن فى الزواج ولا يتوقعنه) : فليس عليهن جناح أن يضعن ثيابهن ، غير متبرجات بزينة (أى غير متعمدات وقاصدات أن يكشفن عن زينتهن)».. فأية زينة للنساء العجائز اللاتى لا يطمعن ولايتوقعن الزواج ، واللائى فات عليهن الوقت لتقدم سنهن .. سوى بدنهن ؟. إن أى مكان فى بدنها كانت تزينه ـ زينة ظاهرة أو خفية ـ أصبح فى كبر سنها الآن لايوحى إطلاقا بأى إغراء للرجل . بل على العكس : أولى لها الآن أن تستره ، بدلا من أن تكشف عنه .

• إن اعتبار الإسلام بدن المرأة كله . . زينتها الخاصة بها : يعود إلى وزنها فى حياة الرجل ، وقيمتها فى سلوكه ومواقفه . . يعود إلى ما تستطيعه هى بحكم تكوين أنوثتها من تأثير سلبى ، أو إيجابى عليه .

الإسلام لا يجزىء المرأة ولا يصنف بدنها إلى أصناف تختلف قيمتها : بعضها عن بعض فى جذب الرجل وشده إليها : فبعض منها تافه مثلا فى تأثيره على الرجل لضآلة جماله . . وبالتالى لا يعير التفات نظره . وهنا يجوز لها أن تكشف عنه وهى فى مأمن من نظرته الواهية .

المرأة فى نظر الإسلام كل ، ووحدة . . هى زينة الرجل فى حياته ، ومن ثم : تطلب فتمهر ، ولا تطارد ولا تساوم ، وتحترم ولا تبتذل ، ويصان عرضها وتصان رغبتها من فحش القول ، كما يصان بدنها من فجر النظرة ، وتتبعها .

فإذا لم ترض المرأة بنظرة الإسلام إليها . . فلها : أن تختار نظرة أخرى تؤسس عليها : ما ينبغى ، وما لاينبغى لها أن تكشفه من بدنها وتعرضه لإغراء الرجل بها . ولكن ليس لها أن تلوم الإسلام إذا بقى على نظرته من أنها كلها : زينة ، وجمال ، ومصدر إغراء وفتنة : كل ما لها من بدن ، وأنوثة .

● **التبـرج :**

● يقول الله تعالى موصياً نساء الرسول محمد : صلى الله عليه وسلم — وهو قول يوجه إلى جميع المؤمنات الأخريات — احتفاظا بكرامتهن ، وصوناً لهن من التعرض لأذى الكلام ، أو إيذاء النظرات : « يا نساء النبي : لستن كأحد من النساء (أى لأنـكن قدوة فى السلوك لغيركن) : إن اتقيتن (أى إن كنتن تقيات ومطيعات لما يأمر به الله ورسوله) فلا تخضعن بالقول (أى لاتلن ولاتخنثن فى الحديث) فيطمع الذى فى قلبه مرض ، وقلن قولا معروفاً (أى مهذباً لطيفاً دون أن يثير سوء الفهم فى استغلال لطفـكن) . وقرن فى بيوتـكن (أى ولحماية أنفسكن من عبث العابثين يجدر بكن أن يكون لكن بالأولى والأفضل استقرار فى مساكنكن) ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى (كما يجدر بكن أن لاتسلكن إن خرجتن من منازلـكن .. مسلك العارضات لأنفسهن فى الطرقات على الرجال : كما تصنع النساء اللائى استغرقن فى النبعية للإتجاه المادى وحده) وأقمن الصلاة ، وآتين الزكاة ، وأطعن الله ورسوله (أى كنّ مؤمنات صادقات) إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت (أى يذهب قذارة النفوس فى مسلكها وموقفها) ويطهركم تطهيراً »[1] . . فنصحن بأمرين :

أولا : بالحرص على التهذيب واللطف فى الحديث ، والبعد فى الوقت نفسه عن الميوعة والتخنث فيه — كما تصنع المربيات — كى لا يساء فهمهن ممن به مرض النفس والقلب من الرجال .. ممن هم من أصحاب العبث والفجور . وهؤلاء يوجدون فى كل وقت .

وثانياً : بحماية أنفسهن — بقدر الإمكان — وذلك بالاستقرار فى مساكنهن من تطاول العابثين والفجار . على أنهن إذا خرجن يخرجن مبتعدات عن التبرج ..

---

(١) الأحـزاب : ٣٢ ، ٣٣ .

مبتعدات عما يثير إلى عرض أنفسهن على الرجال فى الطرقات . . مبتعدات عن مسلك العابثات المائلات . . عن مسلك أولئكن اللاتى يقصدن إلى إغراء الرجال وشدهن نحوهن ، بطريق ، أو بآخر .

فمفهوم التبرج للمرأة هو محاولتها بما تصنعه بنفسها : إغراء الرجال ودعوتهم إليها . وما تصنعه بنفسها قد يكون فى ملبسها . فقد تلبس مايكشف أو يحدد بدنها تحديداً دقيقاً . ويروى عن الرسول صلى الله عليه وسلم نهيه عن أى منهما : فيروى أبو هريرة عنه قوله: « صنفان من أهل النار لم أرهما بعد : نساء كاسيات، عاريات، مائلات ، مميلات ، ورجال معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس »(١). كما يروى عن أسامة بن زيد قوله : « كسانى رسول الله صلى الله عليه وسلم قبطية كثيفة (والقبطية ثوب رقيق معروف فى مصر قبل الفتح الإسلامى كان لايستر البشرة عن رؤية الناظر ، بل كان يصفها) فكسوتها امرأتى ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : مرها أن تجعل تحته غلالة (والغلالة ما يلبس تحت الثوب) قال (أى فى سبب الأمر بلبس الغلالة :) أخاف أن تصف حجم عظامها »(٢) . وقد يكون طريق التبرج ما تصنعه فى خلقها من تغييره ، أو فى حركتها فى السير مما يثير الريب حولها .

• وتبرج المرأة بهذا المعنى — وهو خروجها فى الطرقات ذات فتنة فى صورة ما ، قصداً إلى إغراء الرجال، وذات دعوة مقنعة إليهم بطريق أو بآخر — يختلف عن مفهوم التجميل وهو أن تزين المرأة وتجمل نفسها . وإذا كان ينطوى تجميل امرأة لنفسها على إبراز أنوثتها . . فإن ذلك منها لإغراء زوجها وحده ، وليس لجذب الأجانب عنها . . نحوها .

---

(١) فى رواية أحمد ومسلم : نيل الأوطار حـ ٢ . ص ١٢٠ .
(٢) فى رواية أحمد : نيل الأوطار حـ ٢ . ص ١٢٠ .

والإسلام يدعو الزوجة إلى تجميل نفسها لزوجها ، ويريدها : أن تكون دوماً ذات إغراء له . يروى عن عائشة رضى الله عنها : «أن امرأة عثمان بن مظعون كانت تخضب وتطيب (أى تضع الخضاب فى يديها وقدميها ، كما تستخدم الطيب فى ثيابها وبدنها) فتركته (أى تركت الخضاب والطيب) فدخلت علىّ (أى دخلت على عائشة) فقلت (بعد أن لاحظت : أنها لم تعد تجمل نفسها) : أمشهد أم مغيب ؟ (أى تتركين تجميل نفسك وزوجك موجود معك الآن ، أم هو غائب عنك ؟) فقالت : مشهد (أى هو حاضر معى وغير مسافر) قالت : (أى ثم علات تركها التجميل مع أن زوجها غير غائب عنها بقولها) : عثمان لا يريد الدنيا ، ولا يريد النساء (أى هو منصرف عن متع الدنيا ، وعن متعة المرأة) . قالت عائشة : فدخل علىّ رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته بذلك . فلقى عثمان فقال : يا عثمان : تؤمن بما نؤمن به ؟ قال : نعم يارسول الله . قال (أى قال الرسول عليه الصلاة والسلام) : فأسوة ما . لك بنا (أى فلك أسوة بنا فى عدم هجر الدنيا والنساء »[1] . . فحمل الرسول عليه الصلاة والسلام صحابياً من أصحابه على العودة إلى الإستمتاع بالدنيا ، وعلى معاشرة زوجته . . هو دعوة — ضمناً — إلى زوجته كذلك : فى الاستمرار فى تجميل نفسها لزوجها حتى يسعدا بحياة زوجية طبيعيـة .

فالنهى عن تبرج المرأة هو نهى عن ابتذالها ومذلّتها فى طلب الرجال الآخرين . والدعوة إلى تجميل الزوجة هو لصون العلاقة بين الزوجين من التفكك والفرقة .

* * *

ولـكن هـل ترضى المرأة المعاصرة : أن لا تتبرج ؟ . إنها تنادى بثورة « التحرير » لتفعل ما تشاء أن تفعله بنفسها وشد الرجال إليها :

---

(١) نيل الأوطار جـ ٦ . ص ٢٠٥ .

• فقد كان من نتائج الحرب العالميه الثانية تزعزع القيم الإنسانية العليا فى نفوس المجتمع الأوربى ، وبالأخص تلك القيم التى تدعو إليها المسيحية ـ كدين ـ وهى قيم : الأخوة ، والمحبة والسلام . فانقسام المجتمع الأوربى فى هذه الحرب إلى معسكرين ماردين : يحاول كل منهما أن يفنى الآخر — أو على الأقل يحاول أن يلحق به أشد الإضرار فتكا بالأموال والأنفس والثمرات — ذهب بمعنى الأخوة المسيحية فى هذا المجتمع ، كما ذهب بمعنى المحبة والسلام بين أفراده .

هذه النتيجة للحرب العالمية الثانية بالإضافة إلى الخصومة السياسية للكنيسة منذ عصر النهضة الأوربية ، التى لبست ثوب الخصومة العقلية أو العلمية للدين ومبادئه : زادت من ضعف الدين والتقاليد على « جيل ما بعد الحرب » وأصبح هدف هذا الجيل هو أن يتحلل من الدين وتقاليد المجتمع الأوربى التى توارثت فيه قروناً عديدة كى يعيش لوقته أو لآونته ، ولا يفكر فى غده .

• وساعد على تحقيق هذه النظرة : «الوجودية» ـ وهو أن يعيش الإنسان لآونته وليس لغده ، وأن يستمتع بوجوده الحاضر ما وسعت له الإمكانيات التى تتيح له ذلك — التقدم الاقتصادى فى المجتمع الأوربى ، كنتيجة للتقدم الصناعى والتكنولوجى . وهو تقدم لم تشهده البشرية من قبل : فى كمه ، ونوعه . وبالأخص التقدم الآلى . وهو التقدم السائد الآن فى بحوث الفضاء ، والعقول الاليكترونية .

فجيل ما بعد هذه الحرب وجد نفسه فى رخاء اقتصادى ، وفى محيط من الإمكانيات العديدة التى تقدم له فى يسر : وسائل الرفاهية وإشباع الرغبات والشهوات . ولا يجد الآن فى نفسه ما يحول بينه وبين الاستمتاع بالحياة المادية ، طالما لا تنطوى هذه النفس على احترام للتقاليد ، ولمبادىء الدين والمقاييس الأخلاقية . ذلك الاحترام الذى أضعفه : الشك فى قيمة تلك التقاليد ، وقيمة المبادىء

والمقاييس ، بسبب أحوال الحرب العالمية الثانية ومصائبها وأضرارها : هذا الشك الذى ورثه من جيله السابق ، وهو جيل الحرب الذى عاشها .

فهنا انطلاق فى غير حدود . وهنا إمكانيات اقتصادية تساعد على هـذا الانطلاق . وليست هنا قيود ولا حواجز نفسية ، وليست هنا كذلك عوائق أو صعوبات مادية . والطريق الآن مفتوح على مصراعيه والحياة مليئة بالمغريات وما يفتن به الإنسان : مما تقدمه الصناعة المعاصرة لرخاء الإنسان فى معيشته .

هذا الجو النفسى والمادى هو جو الجيل الحاضر ـ جيل ما بعد الحرب ـ فى المجتمع الأوربى . وهذا الجو كما أوحى للشباب بالثورة على التقاليد والقيود التى كانت تسود المجتمع فى جيل سابق عليه ، أوحى كذلك للشابة بالثورة على هذه التقاليد والقيود . وربما التقاليد والقيود بالنسبة إلى المرأة كانت تنطوى على ما يجعلها غير متساوية مع الرجل فى أوضاع اجتماعية معينة ، أو على الأقل كانت تنطوى على نظرة فى حياة المرأة تختلف عن تلك النظرة الأخرى فى حياة الرجل: إن فى العلاقه الجنسية ، أو فى وضع العمل خارج المنزل ، أو فى مستوى الأجر على العمل .

وفى هذا الجو النفسى والمادى ـ وهو جو التحلل والرخاء ـ تحركت المرأة فى « ثورة التحرر » وفى طريق «المساواة» . ووصلت فى فترة قصيرة إلى هدفها فى المساواة مع الرجل فى مجال العمل والأجور . وخطت خطوات واسعة كذلك فى سبيل العلاقات الجنسية : وفى شئون الزواج والطلاق .. فى شئون الأمومة وإنجاب الأطفال .. فى شئون المعاشرة الجنسية فى غير علاقة زوجية تقليدية .. إلى غير ذلك مما تتناوله حياة الرجل والمرأة .

وفى بعض المجتمعات الأوربية ـ كمجتمع السويد ـ فاقت المرأة : « مستوى المساواة» مع الرجل . ونشأت عن هذا التفوق مشكلة أخرى ، هى مشكلة مساواة

الرجل بالمرأة ، وليس العكس . وأصبح العمل المنزلى ، وحضانة الأطفال من غير إختصاص المرأة وحدها . وإنما هو اصاحب الأجر الأقل من الزوجين . فالرجل إذا كان دخله من عمله خارج المنزل أقل من دخل زوجته ، تفرغت الزوجة لعمل الوظيفة الخارجية ، وتفرغ الزوج نفسه للعمل بالمنزل وحضانة الطفل .

● وثورة الزى للمرأة هى جانب من « ثورة تحرر المرأة » فى جيل مابعد الحرب العالمية الثانية . تستهدف التحلل الكامل من تقاليد المجتمعات السابقة ، ومن نظراتها إلى الحياة . كما تستهدف تحقيق «المساواة» بالرجل : نصاً . . وروحاً :

١ — فلماذا لا تتساوى به وتقلده فى زيه : فتلبس « الجاكتة والبنطلون » ؟

٢ — ولماذا لا تتساوى به وتقلده فى تسريحة شعره : فتقص شعرها ، وفى بعض الأحيان إلى درجة أدنى من الرجل ؟

٣ — ولماذا لا تتساوى به وتلبس «القصير جداً» مينى جيب . . وتكشف عن فخذيها ، كما يلبس الرجل فى الصيف ويكشف عن فخذيه ؟

٤ — ولماذا لا تتساوى به وتلبس «البيكينى» عند الإقامة على الشواطىء وتكشف عن جسمها كله ، عدا ذلك الساتر الضئيل للعورة ، كما يفعل هو ؟ .

٥ — ولماذا لا تتساوى به وتطلب رفيقها إلى الرقص كما يطلب هو رفيقته كذلك ليراقصها ؟

٦ — ولماذا لا تتساوى به فى الصلة بالجنس الآخر فيحل لها — عرفا — ما يحل له ؟

لماذا ... ولماذا ... لا تتساوى به وقد أصبحت تؤجر على عملها خارج المنزل ، كما يؤجر هو أو أكثر ؟ كما أصبحت تتخرج فى الجامعة ، وتشغل الوظائف التى يشغلها فى مصالح الحكومة أو فى الشركات ؟ وكما أصبحت أيضاً تعيش فى

جو هذا الجيل الجديد — جيل ما بعد الحرب — وهو جيل التحلل من تقاليد الماضى ، وجيل الرخاء الاقتصادى ، والتقدم الصناعى الآلى ؟

ولا فرق بين « الأنوثة » و « الذكورة » كانتاها صنع الطبيعة : والعلم أصبح فى قدرته تغيير هذه الطبيعة ، فيحيل الأنثى ... إلى ذكر ، والذكر ... إلى أنثى ! .

والحديث عن « الأنوثة » و « الذكورة » ونسبة العاطفة والحنان والرقة إلى الأنوثة ، ونسبة الإرادة والحزم والخشونة إلى الذكورة .. هو حديث الماضى: قصد به تحذير المرأة ، فلا تطلب حقها فى المساواة ، كما قصد به جعل الرجل مغروراً فيتشبث بمنزلة ليست له فى واقع الأمر ، وهى منزلة القيادة أو الاستعلاء على المرأة .

إن ذلك تصور بدائى للمرأة : والرجل . فالمرأة المحاربة ليست فى حاجة إلى عاطفة أو حنان ، والرجل فى العصر الآلى ليس فى حاجة إلى مباشرة القيادة أو الاستعلاء !

... وعلى هذا النحو يسير منطق « الثورة » لتحرر المرأة فى جيل ما بعد الحرب العالمية الثانية :

١ — فى دائرة الزى ،

٢ — وفى دائرة الحقوق والمساومة ،

٣ — وفى دائرة التركيب العضوى والاجتماعى .

● وتشجع هذه الثورة ـ وكذا ثورة الجيل كله ـ ضد التقاليد والمقاييس الأخلاقية : نظم الحكم السياسية المعاصرة فى المجتمعات الأوربية . إذ أن هذه النظم تعيش مزدهرة فى غيبة القيم الأخلاقية والدينية ، أكثر منها فى وجودها .

فهذه النظم ترتكز على « العلمانية » أو « الإلحادية » . والعلمانية والإلحادية كلتاهما تخاصم الدين ، وما تكون عنه من تقاليد . بسبب أن الدين فى المجتمع الأوربى يكون سلطة سياسة ثانية ، وهى سلطة الكنيسة . ولذا : سلطة الكنيسة خصم لسلطة الدولة فى أىّ مجتمع أوربى . وفى البعد عن الدين وتقاليده ، وفى التحلل من المقاييس الأخلاقية . . تخف حدة التنازع على السلطة ، وبالتالى تصبح سلطة الدولة أقوى . ومن جهة أخرى فى غيبة الدين والمقاييس الأخلاقية : تشيع « الإنتهازية » و « الميكافيلية » و « المنفعية » و « القرصنة » . وكلها وسائل لإشباع الرغبات الشخصية عن طريق السلطة .

والمجتمعات غير الأوربية مازالت تتبع وتقلد المجتمعات الأوروبية فى اتجاهها وفى ثوراتها ، وإن اختلفت درجة التقليد أو اختلف مستواه . ولكنها على أية حال تسير فى طريق التقليد . لأن شخصيتها المستقلة لم تتبلور بعد تماماً . إذ استقلال شخصية أى مجتمع يعتمد فى الدرجة الأولى على التمسك بمقوماته التاريخية . وطالما هذه المقومات لم تكن لها السيادة فى الاعتبار بعد ، فإن استقلال شخصية المجتمع تبقى فى حيز الظهور .

وثورة «تحرر المرأة» من الثورات التى تلقى رواجاً خارج المجتمعات الأوربية . وجانب « الأزياء » فيها أكثر قبولا . لأنه يشعر المرأة فى سرعة بحريتها التى تنشدها . وهى حرية الإعلان للرجل عن تخلصها من تقاليد الماضى ومبادئه . وإن لم تتحرر فى واقع أمرها . إذ التحرر : تطور نفسى قبل أن يكون إعلاناً عن الحرية فى المظهر .

و « ثورة تحرر المرأة » إذا قلدت فيها المرأة فى مجتمع آخر — كالمجتمع الإسلامى مثلا — يصعب على المرأة المقلدة أن تفهم نظاماً آخر للأسرة ، وإن كان

ينطوى على تحرير المرأة .. وإن كان هو فى نفسه « ثورة » على المذلة ، وإهدار كرامة المرأة . لأنها مقلدة ، ولأنها تحرص فى تقليدها على أن تسير فى خطوط ما قلدت فيه ، وإن كان فيه مذلتها وإهدار كرامتها .

١ — فإذا جاء الإسلام وجعل للمرأة الحرية فى إتمام عقد الزواج كالرجل سواء بسواء ،

٢ — وإذا جاء الإسلام وجعل للرجل الطلاق ، وللمرأة الخلع فى فصم عرى الزوجية ، إن تضرر أحد الزوجين بالمعاشرة الزوجية ، دون الرجوع إلى قضاء ،

٣ — وإذا جاء الإسلام وجعل للمرأة حرية البقاء على عقيدتها : يهودية أو مسيحية — كالرجل عقيدته الإسلامية ،

٤ — وإذا جاء الإسلام وجعل للمرأة حرية التصرف فى مالها الخاص ، كما للرجل سواء بسواء حرية التصرف فى ماله الخاص ،

٥ — وإذا جاء الإسلام وأعطى المرأة حقوقاً مماثلة للرجال فى العـــــلاقة الزوجية ، وإن فرق بينهما فالفرق هو فى مطالبة الرجل فى أن يكون أكثر إنسانية وأكثر تهذيباً ، وبالأخص عند الطلاق ،

٦ — وإذا جاء الإسلام وأصر على أن تكون المعاشرة الجنسية فى علاقة زوجية — أى فى علاقة قد شهر أمرها بإعلان الزواج ، وحرم العلاقة السرية التى تمتهن فيها المرأة ، فأباح تعدد الزوجات حتى يتحمل فيها الرجل مسئوليته نحو زوجه وولده مسئولية علنية كاملة ،

٧ — وإذا جاء الإسلام وأبقى على حياء المرأة — وهو جزء فى أنوثتها — وعلى كرامتها كإنسان فيطلب إلى الرجل الزوج أن يقدم لها مهراً وهو منحة وهدية ، كى يعبر عن طلبه إياها ورغبته فى الزواج بها . .

.. إذا جاء الإسلام وصنع كل ذلك فى إطار العلاقة بين المرأة والرجل فهو فى نظر المرأة المناهدة لثورة تحرير المرأة فى أوروبا : من مخلفات الماضى ، وإن كان يحقق « المساواة » الذى هو هدف هذه الثورة ، وإن كان يحقق الكرامة الإنسانية ، التى لم تحققها هذه الثورة ، ولم تطلبها أيضاً .

كيف تطالب هذه الثورة المحافظة على كرامة المرأة وهى تدفعها إلى أن تنزل « بلحمها مكشوفاً » : مجال العرض فى الشارع ، وعلى الشاطىء ، وفى الأندية وأماكن الاجتماع والاختلاط ؟

كيف تطالب هذه الثورة المحافظة على كرامة المرأة وهى تدفعها إلى أن تلح فى إغراء الرجل بتقلبها فى أزياء مختلفة وخروجها عن الحياء فى موقفها منه إن هى أرادته ؟ .

الإسلام يبقى على أنوثة المرأة وحنانها وعاطفتها ، كما يبقى على رجولة الرجل وإرادته ، ويحول دون أن تتحول المرأة إلى رجل ، ويتحول الرجل إلى امرأة ، وإن كانت ثورة تحرير المرأة فى جيل ما بعد الحرب العالمية الثانية فى المجتمع الأوربى تطالب بالمساواة الحرفية ، وإن كان التقدم العلمى فى عصرنا الحاضر قد باشر بالفعل تحويل الرجل إلى امرأة ، ويسعى إلى تحويل المرأة إلى رجل تحويلا عضوياً .

الإسلام سيظل دين الإنسان فى إنسانيته ، رغم ثورة « الجنس » لأنها ثورة من أجل الانحلال والانطلاق . والإسلام سيظل مصدر الحضارة الإنسانية التى هى حضارة الإنسان ، وليست حضارة الانطلاق .

● **الطـــلاق :**

يأتى الطلاق فى القرآن للتعبير عن فصم عرى الزوجية التى ارتبطت بعقد النكاح . ولكن قبل أن يباشره الأزواج طالب إليهم القرآن فى الإقدام عليه ، وذلك فيما يوجهه من نداء فى قوله : « وعاشروهن بالمعروف ، فإن كرهتموهن

فعسى أن تكرهوا شيئاً ، ويجعل الله فيه خيراً كثيراً »[1] . . فالآية توصى — كمبدأ عام — بحسن المعاشرة فى العلاقة الزوجية . وحسن المعاشرة ينطوى — فيما ينطوى — على الصبر والتحمل . وعلى محاولة الملاءمة فى هدوء وحكمة عند الخلاف فى الرأى ، أو النظرة بين الطرفين . كما توصى الأزواج بمراجعة الأمر عندما يحسون بكراهية ، أو ببغض ، أو بضيق صدر ، من زوجاتهم ، إذ تقول : « وعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً » . ومراجعة الأمر وتحليله : قد يكشف عن عنصر هام فى الزوجة المكروهة أو المبغوضة ، يذهب بكراهيتها وببغضها ويعيد من جديد للزوج : رغبته فى الإبقاء عليها ، والحرص على مودتها . فقد تكشف مراجعة الأمر عن عنصر : الوفاء والأمانة ، أو عن عنصر حسن التدبير فى المنزل ، وحسن الرعاية للأولاد ، أو عنصر الحكمة فى الرأى والمشورة ، أو عنصر المساعدة فى العمل وحل المشاكل : إلى غير ذلك . . من الصفات التى تجعل الرجل حريصاً على زوجته . ثم طلب أيضاً قيام الأهل بالاصلاح بينهما : «فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها ، أن يريدا إصلاحاً يوفق الله بينهما »[2] .

وعندما يباشر الأزواج الطلاق : جعله القرآن على مراحل ثلاث ، تستغرق كل مرحلة : ثلاثة أشهر ، أو ثلاثة قروء . فعن مراحل الطلاق يقول الله تعالى : « الطلاق مرتان ، فإمساك بمعروف (أى فى الطلقة الثالثة) أو تسريح بإحسان »[3] . وعن زمن كل مرحلة يجىء قوله سبحانه : « والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء »[4] . . والتعبير بتعدد الطلاق هنا : « الطلاق مرتان » . . يميل إلى أن الطلاق بلفظ الثلاث لا يقع إلا طلقة واحدة . . أى ليست له إلا آثار طلقة واحدة . وآثار الطلقة الواحدة : هى جواز مراجعة الزوجة مدة الثلاثة أشهر أو الثلاثة قروء . والمراحل الثلاث للطلاق وأزمنتها الثلاثة التى تبلغ فى جملتها تسعة أشهر . قصد

---

(١) النساء : ١٩ (٢) البقرة : ٢٢٩ .
(٣) النساء ٣٥ (٤) البقرة ٢٢٨ .

منها إفساح الوقت لمراجعة الطرفين : وضع العلاقة الزوجية بينهما وإعادة تقييمها في جو هادىء ، وفي عزلة كل عن الآخر . . مما يتيح الفرصة لهما لاستخلاص النتائج السليمة لحال الاستمرار في العشرة ، ولحال الفرقة وإنهاء تواجد الحياة المشتركة بينهما ، على السواء .

ثم لو استقر الرأى على الطلاق .. فيجب أن يكون تعبيراً عن إزالة الضرر الناتج عن سوء العشرة الزوجية، وليس وسيلة للاضرار بالزوجة في أية صورة ما . والطلاق من أجل إزالة الضرر فقط في العشرة الزوجية .. يستتبع من الزوج : أن يكون محسناً في طلاقه . وإحسانه في الطلاق يتمثل في أمرين : في أن يعطى زوجته المطلقة والتي دخل بها : منحة — أو متعة — تستعين بها على اجتياز الفترة التي تعقب الطلاق . وهي فترة : صعوبتها من الناحية النفسية .. قد تكون أشد. ولكن الجانب المادى من جانب الزوج الذى تعبر عنه المنحة قد يكون له أثر في تخفيف الصعوبة النفسية . ويجيء في هذا قوله سبحانه : «وللمطلقات متاع بالمعروف ، حقاً على المتقين[1]» . وكذلك يتمثل إحسان الزوج عند الطلاق في أن يتنازل لزوجته التي عقد عليها ولم يدخل بها . . عن نصف المهر المستحق له : من المهر كله الذى دفعه لها . وفي ذلك يقول جل شأنه : «وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن ، وقد فرضتم لهن فريضة فنصف ما فرضتم (أى لكم أيها الأزواج : الحق في استرداد نصف المهر عند ئذ) إلا أن يعفون أو يعفو الذى بيده عقدة النكاح (أى إلا أن يعفو أحد الطرفين في الزيجة : الزوجة ، أو الزوج ، أو ولى الأمر لهما ، أو لأى منهما عن حقه) وأن تعفوا أقرب للتقوى (أى وإن تتنازلوا أنتم أيها الأزواج .. أقرب إلى تقوى الله . لأن في تنازلكم عن مستحقكم من نصف المهر .. ما يكون

---

(١) البقرة : ٢٤١ .

شبه عوض على خيبة أمل الزوجة فى زوجها) »[١] ..

● ولا ينبغى بحال أن يتخذ الطلاق وما يستتبعه من آثار .. وسيلة للإضرار بمصلحة الزوجة فى زواج جديد : « وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن (وهو نهاية الشهر ، أو القرء) فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن إذا تراضوا بينهم بالمعروف (أى فلا تمسكوهن من جديد بمراجعتهن : لا لرغبتكم فى معاشرتهن ، ولكن حرصاً منكم على فوات مصلحتهن فى زواج جديد ينتظرهن)»[٢] .. ولا أن يتخذ وسيلة لإرهاقها ، والإضرار بها ، وتحصيل المشقة لها : « وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن : فأمسكوهن بمعروف ، أو سرحوهن بمعروف (أى بعد انتهاء عدة الطلاق فالأزواج مخيرون : بين الاستمرار فى حسن العشرة الزوجية ، أو مفارقة نسائهن ، ولكن فى تهذيب وإنسانية) ولا تمسكوهن ضراراً لتعتدوا ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه (أى ولا ينبغى أن يكون إمساككم ـ أيها الأزواج ـ لنسائكم بمراجعتكم إياهن : صادراً عن رغبة فى إلحاق ضرر بهن فى معاشرتكم لهن ، لأنكم إن فعلتم ذلك كنتم قد باشرتم عدواناً عليهن وظلمتم بذلك أنفسكم) »[٣] .. ولا أن يتخذ أيضاً وسيلة لابتزاز مالها أو استرداد المهر منها : « ولا يحل لكم (والخطاب للأزواج) أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً ، إلا أن يخافا : أن لا يقيما حدود الله (وذلك بالاستمرار فى سوء العشرة) فإن خفتم أن لا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به (أى فيما أعطته الزوجة من مهرها ، إبتغاء خلاصها من سوء عشرة الزوجية . عندئذ فقط يحل للزوج أن يأخذ مالا من زوجته ، على شرط أن لا يزيد ما يأخذه عن المهر ، وإلا كان مبتزاً المال وآكلا لأموال الناس بالباطل)»[٤] .

---

(١) البقرة : ٢٣٧ .
(٢) البقرة : ٢٣٢ .
(٣) البقرة : ٢٣١ .
(٤) البقرة : ٢٢٩ .

والطلاق إذن : ليس وسيلة إرهاب ، ولا تهديد ولا وعد أو وعيد ، وليس وسيلة استغلال لمال الزوجة وإلحاق الأذى والضرر بها . إنه فقط : تعبير عن نية الفرقة فى الحياة الزوجية ، وعن عزم الزوج وتصميمه على وضع حد لسوء العشرة بين الزوجين .

● **الافتداء ـ أو الخلع :**

● تأتى كلمة : « الافتداء » فى القرآن . . تعبيراً عن الخلاص من ضرر ، فى مقابل فدية من مال وخلافه ، مما يدخل فى اعتبار الإنسان وتقييمه :

تأتى هذه الكلمة فى التعبير عن خلاص الأسرى من أسرهم فى مقابل شىء ما . على نحو ما جاء فى قوله تعالى ـ فى خطابه لبنى إسرائيل ـ : « ثم أنتم هؤلاء : تقتلون أنفسكم ، وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم ، تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان ، وإن يأتوكم أسارى تفادوهم ، وهو محرم عليكم إخراجهم »[1] . . فجاءت كلمة : « تفادوهم » هنا لتوضيح أن بنى إسرائيل انتهكوا كل الأصول التى تراعى فى كيان الأمة : « فارتكبوا شذوذاً : فى معاملة بعضهم لبعض ، فقتلوا بعضهم بعضاً ، وأخرج فريق منهم فريقاً آخر : من الديار ، وإن عاد الفريق المنفى اعتبر أسيراً وأخذت منه الفدية مقابل إطلاق سراحه وتخليصه من الأسر .

. . وتأتى فى التعبير عما يتمناه الكافرون من الخلاص : من عذاب الآخرة . . مقابل ما يملكون ، لو أنهم ملكوا ، كما يقول الله ، مصوراً حال الكافرين وما هم فيه من مذلة ومشقة : « إن الذين كفروا : لو أن لهم ما فى الأرض جميعاً ـ ومثله معه ـ ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة ، ما تقبل منهم ، ولهم عذاب أليم »[2] . . ويقول : « يبصرونهم : يود المجرم لو يفتدى من عذاب يومئذ : ببنيه . وصاحبته

---

(١) البقرة : ٨٥ .　　(٢) المائدة : ٣٦ .

(أى زوجه) وأخيه ، وفصيلته التى تؤويه ، ومن فى الأرض جميعاً ، ثم ينجيه »[1] ..

ويلاحظ أن المفتدى — أو من يقدم الفدية — هو فى وضع سيء يشق على نفسه الاستمرار فيه . ومن أجل ذلك يسعى إلى الخلاص منه ، فى مقابل ما : فالأسير فى وضع سيء يشق على نفسه الاستمرار فيه . والكافر أو المجرم فى يوم الآخرة : فى وضع سيء يتمنى الخلاص منه .

وعلى هذا النحو تأتى كلمة الافتداء فى العلاقة الزوجية .. فى جانب الزوجة يقول الله تعالى : « ولا يحل لكم : أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً (أى ولا يحل للأزواج أن تسترد شيئاً ما : مما أعطته من مهور لزوجاتهم . وهذا أصل عام ، وحد من حدود الله فى شأن الأسرة) إلا أن يخافا أن لا يقيما حدود الله ، فإن خفتم ، أن لا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به (أى ولكن فى حالة واحدة فقط ، يجوز للمرأة أن تعطى من مهرها ، ويجوز للرجل أن يأخذ منها ما تعطيه إياه . وتلك هى الحالة التى يخشى فيها كل من الزوج والزوجة .. عدم تنفيذ حدود الله فى عشرتهما الزوجية .. يخشيان الاستمرار فيها لسوء العشرة بينهما ، وضيق الزوجة بالحياة الزوجية وتضررها بها تضرراً يدفعها إلى أن تتنازل عن المهر ، بعضاً أو كلا ، فى مقابل الخلاص من هذه العشرة السيئة . فهنا : سوء العشرة الزوجية مخالف لحدود الله فى قوله : « وعاشروهن بالمعروف » . والوجه المعروف فى العشرة الزوجية هو الوجه الإنسانى الكريم المهذب) »[2].

.. فالزوجة هنا متضررة ، وفى وضع تريد أن تتخلص منه ، وهو وضع يشق عليها الاستمرار فيه . ومن أجل ذلك تريد أن تعطى مقابلا لخلاصها من سوء العشرة : من مهرها ، إما بعضه ، أو كله . فهى تفتدى .. أى تعطى فدية .

وفى عرف الفقهاء تسمى الزوجة المفتدية .. مختلعة ، أى طالبة : أن تخلع نفسها

---

(١) المعارج : ١١ — ١٤ . (٢) البقرة : ٢٢٦/٢٢٧

من عقد الزوجية . ولتخفيف الأمر عل الزوجة المفتدية — أوالمختلعة — كانت عدتها شهراً واحداً ، وليست ثلاثة أشهر كالمطلقة . لأنها متضررة بارتباطها بزوجها الذى جعل حياتهما المشتركة فى غاية المشقة عليها . وللغرض نفسه — و هو التقليل ما أمكن من آثار الزوج فى حياتها — كان الافتداء ، أوالخلع ، فسخاً لعقد الزواج — عند ابن تيمية يحكم به القاضى ، وكما وقع على عهد الرسول عليه الصلاة والسلام — دون الحاجة إلى وقوع طلاق من الزوج نفسه . وبذلك يصير الخلع فى جانب الزوجة ، كالطلاق فى جانب الرجل . وكلاهما — الخلع ، والطلاق — تعبير ان عن التصميم على ترك الحياة الزوجية ، وإنهاء عقد النكاح الذى صدر باختيارهما اختياراً مطلقا ، أول الأمر .

ولايحل للزوج إذا رأى استعداد زوجته للافتداء .. أن يأخذ منها أكثر مما أعطاها من مهر . وإلا كان آكلا لأموال الناس بالباطل ، وهو سحت وعقابه عند الله : نار جهنم .

● **الظهـــار :**

الظهار نوع من أنواع الفرقة فى العـلاقة الزوجية . وقد كان مستعملا فى الجاهلية — أى على عهـد الاستخفاف بإنسانية المرأة — كطلاق : يعفى الزوج من التزاماته الزوجية نحو زوجته ، بينما لايعطى الزوجة : الحرية فى ترك منزل الزوجية أو الزواج بآخر . والزوج عن طريق الظهار كان يمارس أنانيته فى إبعاد الزوجة عن حقوقها ، مع ربطها ربطاً وثيقاً كرقيقة له ، دون أن تصير حرة حتى فى التزوج برجل آخر . والظهار يشبه العضل فى آثاره . وعضل النساء — كما جاء فى قوله تعالى: « ولا تعضلوهن » — هو أن يطلق الرجل امرأته طلقة غير بائنة ، ثم عندما يقرب انتهاء مدتها يراجعها . . وهكذا . ويحول بذلك دون إعادة الحرية لهـا لتتزوج برجل آخر .

ولفظ الظهار – هو : أن يقول الزوج لزوجته : أنت علىّ كظهر أمى . . أى أنت فى الحرمة علىّ .. كحرمة أمى علىّ ، ويلحقها بذلك بأمه فى الحرمة ، وبذلك لايقترب منها أشهراً ، وربما سنين عديدة . وهى على وضع الآن لاتعتبر فيه زوجة .. كما لاتعتبر فيه غير زوجة . وبذلك كان الظهار صورة من صور الاستبداد .. استبداد القوى بالضعيف : القوى بعضلاته . . والضعيف بجسمه ، يمارسها الرجل الأنانى .

• وقد جاء إلغاء القرآن لهذا النوع من التعبير عن الفرقة بين الزوجين : فى صورة تدل على منتهى الاهتمام من جانب الله سبحانه بتأكيد إنسانية المرأة ، وإبعاد ما كان يمارسه الأنانيّون غير المهذبين حيال النيل من كرامتها : فقد روى عن خولة بنت ثعلبة قالت : ظاهر منى أوس بن الصامت – وهو زوجها – (أى قال لها أنت علىّ كظهر أمى) فجئت لرسول الله صلى الله عليه وسلم يجادلنى فيه (أى يحاورنى ويراجعنى فى شأنه) ويقول : اتقى الله ، فإنه ابن عمك فمابرح (أى لم يزل) يراجعنى فى شأنه حتى نزل القرآن . « قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها ، وتشتكى إلى الله (أى فى صلاتها والدعاء له بأن يخلصها مما هى فيه من وضع مؤلم غير إنسانى وغير كريم) والله يسمع تحاوركما ، إن الله سميع بصير . الذين يظاهرون منكم من نسائهم (أى الذين يحرمونهم – الآن بعد الإسلام – على أنفسهم: تحريم الأمهات) : ماهن أمهاتهم ، إن أمهاتهم إلا اللائى ولدنهم ، وإنهم ليقولون منكراً من القول وزوراً (أى إن ما كان يستعمل فى الجاهلية – أى فى العهود غير الإنسانية – من هذا النوع من التحريم : إن هو إلا قول زور ومنكر، ولا أساس له من واقع ، ويقصد به فقط إلحاق الأذى والضرر بالزوجات . وإلا فكيف تكون الزوجة أماً للزوج – وأمه هى وحدها التى ولدته – وبالتالى : كيف تنتقل حرمة الأم الأبدية على ولدها .. إلى زوجته وهى حلاله بمقتضى عقد الزوجيه ؟) وإن الله لعفو

غفور (أى لما سلف ووقع منه قبل نزول تحريمه) . والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا (فيعفلون شأن ما قالوه من ظهار ويرجعون إلى الوضع الطبيعى للزوجية .. هؤلاء يلزمون - قبل التقائهم بزوجاتهم - بكفارة عظمى ، عقوبة لهم على مسلكهم الأنانى ، وإتيانهم بالمنكر والزور من القول) فتحرير رقبة (أى مؤمنة) من قبل أن يتماسا ، ذلكم توعظون به والله بما تعملون خبير . فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا ، فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكيناً ، ذلك لتؤمنوا بالله ورسوله (أى إن أداءكم هذه العقوبة الكبرى : يستهدف الاستقرار بكم على الوضع الجديد الذى أوحى به الله لرسوله عليه السلام وهو وضع تحريم الظهار كصورة من صور الطلاق والفرقة) وتلك حدود الله ، وللكافرين عذاب أليم »[1].

وبعد أن نزلت هذه الآيات قال - رسول الله عليه الصلاة والسلام ، لخولة - بعتق رقبة (أى على زوجها الأوس : عتق رقبة) قالت : لايجد ، قال : فيصوم شهرين متتابعين ، قالت : يارسول الله إنه شيخ كبير ، مابه من صيام ، قال: فليطعم ستين مسكيناً . قالت : ماعنده من شيء يتصدق به ، قال : فأتى ساعتئذ (أى من مال الزكاة) بعرق من تمر (أى زنبيل من تمر) قالت : يارسول الله فإنى سأعينه بعرق آخر ، قال : قد أحسنت . اذهبى فأطعمى بهما عنه ستين مسكيناً وارجعى إلى ابن عمك »[2].

وبتحريم القرآن الظهار ، وتحايلات أخرى كانت ترتبط بالطلاق : يقضى الإسلام على الصور غير الإنسانية التى كانت تمتهن - أو تستغل - فيها المرأة فى العلاقة الزوجية .

---

(١) المجادلة : ١ - ٤ .

(٢) الحديث فى نيل الاوطار : جـ ٦ . ص ٢٧٨ .

● **الايـــلاء :**

● وصورة أخرى من صور عدم التقدير لعلاقة الزوجة بزوجها .. مايعبر عنها بالإيلاء : وهو الحلف بالله من الزوج على عدم اقترابه من زوجته مدة غير معلومة .. كأن يقول لها : أنت علىّ حرام .

وهو مما نقله بعض المسلمين من جاهليتهم إلى عهد الإسلام . وقد كان يستعمل فى بداية عهدهم به ، حتى جاء قوله تعالى : « لايؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم (أى لايحاسبكم على الأيمان التى تصدر عفواً ، من غير نية سابقة وقصد مبيت) ، ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم (أى ولكن مؤاخذة الله لكم تتم : عندما يكون هناك إصرار على اليمين فى أنفسكم . لأن الله — جلت قدرته — لايريد أن يعرض اسمه فى مجال أخطاء الإنسان وكذبه) والله غفور حليم (لما مضى من أيمان قبل هذا التحذير) . للذين يؤلون من نسائهم (أى لأولئكم الأزواج الذين يحلفون على نسائهم بالحرمة) . . تربص أربعة أشهر (أى انتظار مدة أقصاها أربعة أشهر ، يخير الزوج بعدها : إما إلى عودة لزوجته ، وإما إلى خروج من عقد الزوجية . ولم يلغ القرآن فوراً : هذا الإيلاء ، كما ألغى الظهار — وكل فيه حالة تعسف . . وكل فيه مباشرة الزوج : تحريم ما لا يستطيع تحريمه — لأن الحلف بالله له وقاره واحترامه ، وله كذلك : اعتباره . فرعاية لتضرر الزوجة حدّد أجله بمدة أربعة أشهر . ورعاية لاعتبار اليمين بالله لأنها يمين تنعقد — لم يلغ أثرها كلية . بل جعل لها أثر يمتد إلى آخر تلك المدة المحددة) فإن فاءوا فإن الله غفور رحيم (وعند انتهاء مدة الأربعة أشهر : إن عاد الأزواج إلى زوجاتهم فإن الله غفور لهم على خطئهم هذا .. ورحيم بهم عندما يرفعون الضرر والأذى الذى ألحقوه بنسائهم) وإن عزموا الطلاق فإن الله سميع عليم »[1] .

---

(١) البقرة : ٢٢٦/٢٢٧ .

• ويقول بعض الفقهاء ـ للشبه القائم بين الإيلاء والظهار ـ إن فى قول الرجل لزوجته أنت علىّ حرام . . كفارة ظهار : أى عتق رقيق ، فصيام شهرين متتابعين ، فإطعام ستين مسكيناً . ويذكر ابن القيم أن هذا الرأى صح عن ابن عباس ، وهو كذلك إحدى الروايات عن أحمد . وحجة هذا القول : أن الله تعالى : جعل التشبيه بمن تحرم عليه . . ظهاراً ، فالتصريح منه بالتحريم أولى . ويؤيده : أن الله تعالى لم يجعل المكلف : التحليل والتحريم . وإنما ذلك إلى الله تعالى . فإذا قال الزوج فى الظهار : أنت علىّ كظهر أمى . . أو قال فى الإيلاء : أنت علىّ حرام . . فقد قال المنكر من القول والزور ، وكذب على الله تعالى ، فإنه لم يجعلها عليه كظهر أمه ، ولم يجعلها عليه حراماً ، فقد أوجب بهذا القول المنكر أغلظ الكفارتين ، وهى كفارة الظهار .

• وكما أن الظهار جعل غير مقبول فى الإسلام ـ بعد نزول القرآن الكريم بآيات المجادلة ـ فكذلك الإيلاء غير مقبول فيه أيضاً ، لقوله تعالى هنا : «ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم» . . فمؤاخذة الله لمن يحلف به كبدأ عام ـ وعلى وجه أخص لمن يحلف بالله محرماً زوجته على نفسه ـ دليل على النهى عنه .

وإذ يبعد الإسلام العبث ، والضرر فى العلاقة الزوجية . . فإنه يريدها إنسانية فى قيامها . . وإنسانية فى بقائها . . وإنسانية فى وضع نهاية لها بالطلاق .

• اليتيم

• يمتن الله على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم فى سورة الضحى بقوله : «ألم يجدك يتيما فآوى» . . فأطلق عليه وصف اليتيم . إذ قد عرف من سيرته عليه السلام : أنه كان صغيراً لم تتجاوز سنه ستة أشهر ، عندما مات أبوه وتركه فى حضانة أمه ، وفى رعاية عمه أبى طالب . واليتيم إذن هو من مات أبوه ولم يبلغ مستوى الرشد بعد فى الإنسانية . ولعدم بلوغه مستوى الرشد كان ضعيفاً ، كما كان

فى حاجة إلى رعاية غيره : إن فى حسن معاملته وتوجيهه ، وإن فى استثمار ماله — إن كان ذا مال — والمحافظة عليه .

والضعف أمر ملحوظ فى مفهوم اليتيم . وهذا الضعف هو : فى مستوى المسئولية ، وفى درجة الاستقلال فى التصرف ، قبل الضعف فى القوة البدنية وفى النماء الجسمى . ويلحق باليتيم : كل ضعيف فى مسئوليته ، وفى درجة استقلاله العقلى ، مهما كانت له من قوة البدن وفراهة الجسم . وقد يكون الضعف فى المسئولية ، أو فى درجة الاستقلال العقلى ناتجاً عن خوف أو إرهاب أو إذلال ، وليس عن قصور فى الاستطاعة البشرية ، وإمكانيات الذات نفسها .

● ولأن ضعف اليتيم ضعف إنسانى ، جاءت آية القرآن فى شأنه ، حاثة على اتخاذ موقف خاص منه . وهو موقف يتكون من ثلاثة جوانب :

الجانب الأول : إنكار الغلظة والجفوة معه وفى معاملته . يقول الله تعالى : « أرأيت الذى يكذب بالدين (أى يوم الجزاء فى الآخرة) ؟. فذلك الذى يدع اليتيم (أى يعامله فى غلظة وجفوة) »[1] . . فجعل القرآن من يعامل اليتيم فى غلظة : فى مستوى من ينكر الآخرة والجزاء فيها ، ولا يؤمن بأنها تقع . وهو ذلك المادى الذى تمكنت منه شهوات الحياة الدنيا ، وذلك الأنانى الذى لا يرى فى الوجود إلا ذاته وحدها .

والجانب الثانى: حسن معاملته ، كما جاء فى قول المولى عز وجل : «وبالوالدين إحساناً ، وبذى القربى ، واليتامى »[2] .. فالإحسان المطلوب هنا للوالدين ، ولذى القربى ، واليتامى : قد يكون إحساناً معنوياً فى لطف المعاملة ، قبل أن يكون إحساناً مادياً فى العطاء القليل أو الكثير . وليس من الإحسان إلى اليتامى : تجنب

---

(١) الماعون : ١ ، ٢ (٢) النساء : ٣٦ .

مخالطتهم وعدم الاهتمام بأمرهم . لأن الإحسان ليس أمراً سلبياً . وإنما هو عمل إيجابى : « ويسألونك عن اليتامى ، قل إصلاح لهم ، خير (أى الاهتمام بإصلاح أمرهم ، خير من تجنبهم وتركهم وشأنهم) »[١] .

والجانب الثالث : المحافظة على ماله ، وحسن استثماره . على نحو ما تذكره هذه الآية : « ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن ، حتى يبلغ أشده »[٢] . فهى تحدد المباشرة المقبولة فى استثمار مال اليتيم ، بأنها المباشرة التى هى أحسن .. أى التى تدر ثمرة وربحاً أكثر ، مع قلة فى الإنفاق . أما المحافظة على رأس ماله فقد نهى القرآن عن حالتين يتصور بأية واحدة منهما هلاك رأس المال ، وضياعه : الأولى : الاقتطاع منه ظلماً وعدواناً . وقد سماه « أكلا » فى قوله : « إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً ، إنما يأكلون فى بطونهم ناراً »[٣] . والثانية تبديل الخبيث بالطيب . أى أخذ الطيب والأجود من مال اليتيم ، ووضع الردىء والسىء من مال الوصى بدلا منه . وجاء النهى عن ذلك فى قوله : «وآتوا اليتامى أموالهم (أى كاملة ، عندما يبلغون الرشد وتسلمونها إليهم . والخطاب للأوصياء) . ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب (أى لا تأخذوا الطيب والأجود منها ، وتسلموهم الردىء والسىء من أموالكم ، بدلا منه) »[٤] .

وقد كان نصح القرآن فى قوله : « فأما اليتيم فلا تقهر (أى فلا تغلبه على ماله وحقه لضعفه) »[٥] .. مبدأ عاماً للحيلولة دون استغلال الضعف فيه بأى وجه من الوجوه .

وما يأمر — أو ينهى عنه — القرآن الأوصياء فى شأن اليتيم ، فإنه حق

---

(١) البقرة : ٢٢٠ .
(٢) الأنعام : ١٥٢ .
(٣) النساء : ١٠ .
(٤) النساء : ٢ .
(٥) الضحى : ٩ .

لليتيم نفسه ، وواجب على الأوصياء مباشرته . ومن وراء تحقيق الحق وأداء الواجب : سلطة الحاكم ، ووظيفة الدولة .

والقرآن إذ ينهى عن استغلال اليتيم لضعفه ، فإنه ينهى عن كل استغلال بسبب الضعف أينما يوجد . وإذ ينصح بحسن معاملة اليتيم لضعفه ، فإنه ينصح بحسن معاملة الضعيف لأى سبب .

• **المسكين :**

• يأتى ذكر : « المسكين » فى آيات عديدة من آيات القرآن الكريم ، توصى بعونه وتغطية حاجته :

١ — جاء ذكره فى مصارف الزكاة فى قول الله تعالى : « إنما الصدقات للفقراء ، والمساكين ، والعاملين عليها ... »[١] ..

٢ — وجاء ذكره فى توزيع غنائم الحرب فى قوله جل شأنه : «واعلموا : أنما غنمتم من شىء فأن لله خمسه ، وللرسول ولذى القربى (أى أقربائه عليه الصلاة والسلام على عهده) واليتامى ، والمساكين ، وابن السبيل »[٢] ..

٣ — وجاء ذكره كذلك فى مصارف البر العام — وراء الزكاة — فيما تقصه هذه الآيات : « واعبدوا الله ، ولاتشركوا به شيئاً ، وبالوالدين إحساناً ، وبذى القربى ، واليتامى ، والمساكين »[٣] ... « ولا يأتل أولوا الفضل منكم والسعة : أن يؤتوا أولى القربى ، والمساكين »[٤] .. « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكن البر من آمن بالله : واليوم الآخر ، والملائكة ، والكتاب ، والنبيين ، وآتى المال على حبه : ذوى القربى ، واليتامى ، والمساكين ... »[٥] .

٤ — وجاء ذكر المسكين أيضاً فى الكفارات عن الأخطاء التى ترتكب ، على

---

(١) التوبة : ٦٠ .
(٢) الأنفال : ٤١ .
(٣) النساء : ٣٦ .
(٤) النور : ١٧٧ .
(٥) البقرة : ١٧٧ .

نحو ما جاء في كفارة الصيد في قول المولى سبحانه : « أو كفارة طعام مساكين، أو عدل ذلك صياما »(١) .

وجعل القرآن ما يعطاه المسكين من كل هذه المصادر للانفاق .. حقاً له ، يجب على من يخرج الزكاة ، أو من ينفق فيما وراءها في سبيل الخير العام ، أو من يوزع غنائم الحرب ، أو من يكفر عن خطأ باشره وتجب فيه الكفارة : أن يحققه له : « فآت ذا القربى حقه ، والمسكين ، وابن السبيل ، ذلك خير للذين يريدون وجه الله ، وأولئك هم المفلحون »(٢) .

فالمسكين صاحب حق في مال غيره . وغيره هنا عديد ومتنوع ، مما يجعل كفالة أمره في سد حاجته .. أمراً مؤكداً . وحقه — كحق غيره من نظرائه ممن يتكفل بهم المجتمع المؤمن — لا يرتبط بهوى من يجب عليه أداؤه ، ولا برغبته . بل هو أمر ملتزم بأدائه المؤمن ، عندما يقبل الإيمان بالله ، فوق أنه هذا الحق إما : عبادة ، أو قربى إلى الله . والعبادة ، أو القربى هي فوق الهوى والشهوة .

• والمسكين صاحب الحق في مال غيره إذا أريد تحديده : من هو ؟ .. فهو ذلك الذي يقل في إعساره ، عن وضع الفقير . أي هو ذلك الذي ليس في حالة إعسار شديد ، كتلك الحالة التي هي للفقير . وقد وصف القرآن الكريم حالة الفقير في قوله تعالى : « وما تنفقوا من خير يوف إليكم ، وأنتم لا تظلمون . للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله ، لا يستطيعون ضرباً في الأرض (أي من أجل السعي في سبيل الرزق) يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف ، تعرفهم بسيماهم (من صفرة الوجه ورثاثة الحال) لا يسألون الناس إلحافا ، وما تنفقوا من خير فإن الله به عليم »(٣) .. فقد وصف القرآن هنا : الفقراء بأنهم العاجزون عن الكسب ، سواء لضعف بدني،

(١) المائدة : ٩٥ .

(٢) الروم : ٣٨ .

(٣) البقرة : ٢٧٢ ، ٢٧٣ .

أو لحائل يحول دون سعيهم كحصار من الأعداء ضرب حولهم بسبب إيمانهم . ولأنهم عاجزون عن الكسب يبدو عليهم الإعياء ، كأمارة على النقص فى التغذية ، أو فى سوء المسكن والملبس .

والفقير إذن هو صاحب أعلى درجة فى الحاجة . ومستواه الأعلى فى الحاجة بسبب عجزه المادى عن السعى فى سبيل كسب الرزق وسد حاجته . والمسكين ليس هو ذلك العاجز عجزاً مادياً عن الكسب والسعى فى سبيل الرزق . وإنما هو يسعى ويلهث فى سبيل كسب العيش ، ويسخر كل طاقاته الممكنة فى سد حاجته . ولكن مع ذلك لا يستطيع أن يسدها : إما لكثرة أولاده ، أو لضعف فى مستوى دخله ، رغم كثرة حركته فى السعى . هو ذلك الذى لم تواته الظروف ليكون أكثر عدة واستعداداً للسعى فى الحياة . وطاقاته على العمل طاقات محدودة ، وقدرته الذهنية قدرة محدودة ، وتصرفه فى الحياة تصرف محدود . إنه إنسان يسعى . ولكن سعيه لا يوصله إلى اتمام حاجته . إنه يؤمن بالقيم الخلقية ، ويسلك طريق تحقيقها ، ولذا لا ينفق فى عبث أو لهو .

هذا العامل ، المجد فى سعيه فى الحياة ، وصاحب الحاجة إلى تغطية نفقته ، هو : المسكين ، الذى جعل له القرآن حقاً لدى الآخرين ممن يفيض دخلهم عن حاجتهم ، ويلتزم بأدائه له : بيت المال أو ما يسمى بالدولة فى نظم الحكم المعاصرة . إنه هو الذى ندد القرآن بسبب التقصير فى حقه .. بأولئكم الأثرياء الأشحاء فى قوله : « .. كلا بل لا تكرمون اليتيم . ولا تحاضون على طعام المسكين . وتأكلون التراث أكلا لما . وتحبون المال حباً جماً »[1] .. وفى قوله « إلا أصحاب اليمين . فى جنات يتساءلون . عن المجرمين . ما سلككم فى سقر ؟ . قالوا : لم نك من المصلين . ولم نك نطعم المسكين »[2] .. إن كفالة المسكين فى المجتمع يراها القرآن ضرورة اجتماعية ، وضرورة إنسانية ، وضرورة سياسية .

---

(١) الفجر : ١٧ — ٢٠ . (٢) المدثر : ٣٩ — ٤٤ .